حجارة بوبيللو

إدوار الخرّاط

رواية



حجارة بوبيللو

ادوار الخراط

حجارة بوبيللو

رواية

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩٢

«بوبيللو» كوم أثريّ تعرف به تُرَب الأقباط في قرية «الطرانة» Tarenthis التي تقع إلى شمال «الخطاطبة»، مديرية البحيرة، مركز كفر داود.

وهي في موقع معمور منذ عصور ما قبل التاريخ، كانت في العصور القديمة مركزاً لتجارة القوافل بين دلتا النيل والصحراء الليبية.

اشتهرت بملح النطرون الثمين، وفي العصور الفرعونية كانت مقراً لعبادة إيزيس.

اكتشف فيها نحو ٦٠٠ مقبرة أثرية وعُثر فيها على ٥٠ هيكلاً عظميّاً مصابة كلها بضربات البُلَط والسهام.

في العصور اليونانية ـ الرومانية أصبحت حامية عسكرية ومقراً لعبادة الإله أبوللو (بوبيللو).

لا يدري المُحِبّ فيمن حبّه
لا يتعينّ له محبوب

الإمام الشعراني

«الأنوار القدسية»

١ ـ المعديّة

يااللي ظلمت الوداد
ورضيت بنار البعاد
أفديك بروحي

صوت الشيخ العفيّ شجيٌّ وبليغ وعميق النبرة.

نحن في المعدية الحديديّة مسطّحة الجوف التي تنـزلق على الـريّاح البِحيري بانسيابٍ هادىء؛ رائحة الماء في هـذا الصبح العـالي نفاذة، نباتيّة.

في طريقنا من الطّرانة إلى الغيط الغربي، وراء «بوبيللو» بين حافتي الصحراء والخضرة الغنية.

أبوللو المغنّواتي. . المخلّص، لاعب الليرا القديم، أيستطيـع ـ وقد أصبح الآن بوبيللو، فلاحيّاً بِحِيريّاً، عَـبَرت به ميـاه آلاف السنين في تـرعها العكِـرة حاملةً طينـاً وطميـاً وطفـاوة الـطغيـان ـ أن يـدرأ عني الطواعين والعظايا والخَطَايا السرية؟

نور الصبح ،خيِّراً ومدمِّراً معاً، هل يدحـر ما بقي من ليلةٍ لا تـبرح، ظلالَ توجُّعِ الجسم الفتيّ المسحوق في شهواته غير المنقضية؟

معنا، في المعدية، جدي ساويرس، خـالتي وديدة وخـالتي سارة، عمي فـانوس، الـذي كان يمـوت في خالتِي سـارة حُباً، ولكنـه تزوج خالتي وديدة، والولد برسوم الذي من سِنّي.

كان معنا أيضاً أبونا أندراوس، عمي جورجي عرّيف الكنيسة الأعمى، وخَضْرة الفلّاحة، وحميدة البَرْصا.

ولكن كان معنا، أولاً وأخيراً، لِندة ورحمة، حوريّتين مونقتين، بؤرة الجماعة وبهجتها، تنظران بإعجاب يوشك أن يكون عشقاً صريحاً لأبيهما وهو يغني، صوته الحنون القويّ يتهدّج مع رقرقة الماء في الريّاح.

أُحبهما معاً، لندة ورحمة، وتسحرني مفاتن خَضْرة، وأُنثويّتها الفاضحة.

في داخل هذا المثلث النسويّ، كنت.

عمّي سلوانس كان صرّافاً، دورته في المنوفية، وينام في استراحات المالية بعد أن يجمع الضرائب من الفلاحين وأصحاب الأرض يلفّ عليهم ممتطياً حماره المُطهَّم الفخم، وله مهابة، لأن نقاءه الخُلقيّ لا تشوبه نقطة سواد واحدة، وحذقه في الكتابة والحسابة لا يبارى، وله مكتب في مصلحة الرسوم المقررة في شبين الكوم. الآن كان متبسّطاً وحزيناً، وفي غنائه شجن وفتوة. كان يُلمّ بالطرانة بين الحين والحين، لم أكد أراه إلا لماماً، زوجته ماتت من سبع سنين، فترك البلد كأنه يعاقب نفسه على خطيئةٍ لم يقترفها؛ أم أنه لم يقترفها؟ وترك البنتين في رعاية أختيه خالتي روزه وخالتي سالومة، وخَضْرة التي كانت تخدمهن جميعاً تعيش معهن ومع الجواميس والبقر وفحل الثور. تحملهم، جميعاً، على كفوف الراحة، في البيت القديم العالي.

قويُّ الوجه، قمحيٌّ داكن، عيناه نفّاذتان وغائرتان تحت

محجريهما، وخضراوان. يدان صغيرتان، واضح أنهما مدرّبتان، ورقيقتان بشكلٍ غريب وكأن لهما قدرة على تهدئة صخب المياه في الريّاح. جلابيّته الجوخ الغالية تضرب إلى لونٍ طحليّ قاتم، ورصين، وتنسدل على هيكل جسمه المتين العَضِل، وهو جالس بارتياح على دكّة المركب الجانبية. يغنّي، ممتلىء القلب.

كان له ابن أخت يدرس في المعهد الزراعي في شبين الكوم - هل كان عمي سلوانس ينام عندهم؟ - ويأتي للطرانة في المسامحة الصيفية، كما كنا نأتي من اسكندرية، لكنه كان أكبر مني بعدة سنين، والغريب أنه أشقراني أبيضاني جسيم وطُوال، له حضور وجاذبية، جلابيّته دائماً ناصعة زيّ الفُلّ وجزمته الأستيك دائماً لامعة السواد، كنت أغِير منه، كان المفهوم والمقرر ضمناً أنه سيتزوج رحمة بعد أن يأخذ «الدبْلون».

يصدر عن المعديّة صوتُ صريرِ السلسلة التي تصل بين ضفتيْ الريّاح، يجذبها المعدّاوي، أواصرها مصلوبة تصلصل بصوت خلْفيّ وراء الدندنة الغائبة عنا، وعن نفسها:

جَنَتْ عليك الليالي
وطال عليّ الأنين
والماضي يخطر ببالي
يخلّي قلبي حزين

أما من الناحية الأخرى، فالسلسلة الحديدية الصدئة مرتخية، حلقاتها المحمرّة غارقة من المنتصف، في المياه المتقلّبة بطمي الفيضان المُدوِّم، تتحرك مع حركة المعدية البطيئة الناعمة في عبورها الذي

يجلب إلينا نسمة مائية حلوة تتفتح لها صدورنا، مُـرحّبة في حَـرّ أوائل سبتمبر.

مررنا ـ ونمر بلا انقضاء ـ بالكوم العالي صلب الجسم، عـلى حرف الريّاح. تراب القرون الناعم وأنقاض المشهد الإلهي والأرض الوعـرة الخشنـة تلمع بـالنشمِ الملحيّ وفيهـا شعث من الحلفاء الشـائكـة التي تجرح العين، تحرس تُرَب الأقبـاط، أنقاض الصَبَـوات القديمة لم يبق منها إلا شقافة الزجاج الأخضر السميك، غير جارح، وشظايا الخزف الـلامـع عليـه النقـوش من الأوميجـا إلى الأبسيلون وعـواء الـذئـاب المهزومة بسهامِ جالبِ الطواعين وقاهرها، حامي الفـانِين وشـافيهم. مَنْ لي بأن أعرف نواياكَ القدسيّة أو القـاتلة؟ عمي سلوانس الوريث الذي لم يُعقِب ولداً، أين الخورس الذي لـه أن يصاحبـك في عبورك غير المنتهي؟

أحدّق إلى رحمة. لا أستطيع أن أُحوِّل عنها عينيّ، حتى مـع رقابـة أبيها الفاهمة، ونظرة جدي ساويرس الصارمة، صقراً جارحاً وحانياً لم أنسَ ـ ولا أنسى ـ صفعته الأولى والأخيرة على وجهي منذ أسابيع، إذ ضبطني متلبساً، أجـري وراء لندة في الـزقاق السـدّ الضيق بين بيتنـا وبيت عمي أرسانيوس، في سَوْرة الاستغماية المرتجلَة في عِـزّ الظهـر، فإذا بي أصطدم بها عن نصف قصد، وأُحس ـ لحـظة واحدة ـ بـطنها المتماسك النابض تحت انتصابي وهي تنهـج، ثم تفلت من بين ذراعيّ مضرّجة الوجه عارفة العينين مبتسمة كأنها بالرغم منها.

لكن رحمة هي التي أُحدِّق إليها الآن مسحوراً
كانت أصغر مني جسما ـ حتى ـ وأنحف عوداً

رقيقة، وجهها طويل خفيف السمرة مسحوب، ليس فيه دوران اللحم بل نعومة منسابة. هل هي غريقةٌ رحمة في أمواج حبي البائد الباقي، أمواج الليالي، هذا الوجه المنحوت الشمعيّ، شاخصَ النظرة، يراودني في مياه الأحلام الملحيّة، ألم يكن وجه غريقةٍ أخرى في بحيرة زيوريخ؟ أم هي غريقة قادمة لا أعرف، بعد، غرَقَها؟ قلت: الغرق شهادة. أم هو وجه شاعر أحبيته وضرب نفسه بالرصاص، من الحب، ومات سُدى، مَنْ يعود يذكره؟ وكانت غائرة العينين قليلاً، ونحيلة وصموتاً. على عكس أختها الصغرى البضّة المدوّرة الحنايا؛ كانت أميل إلى لبس الثياب الطويلة الصاحية داكنة الألوان، على عكس أختها التي تحب لبس المشجّر، الملوّن، حواشي فساتينها مكشكشة، طويلة صحيح فلا مفر من ذلك، ولكن واسعة قليلاً من تحت، مما يعطيها انفساحاً وانكشافاً إلى حد ما.

تكشفت له ظلمة الغيطان، حيث تكمن الهداهد، رسل الملك سليمان، والأشباح. وبدت له السواقي ملفّعة بالظلال، جاثمة، مَرَدة تستريح. ردّد الأفق هدير ساقية تدور، والمياه ترتفع، وتتساقط، ومصر تتنفس، وتعمل في الليل كما تعمل في النهار، مثل شاعرٍ يصوغ أبداً قصيدةً خالدة من أحزان قلبه الهادئة.

سألتُ ستي أماليا عن حكاية رحمة وابن خالتها أسعد، فقالت لي:

ـ وانت بتسأل ليه ياواد؟ قال يا داخل بين البصلة وقشرتها... آه يا ناري من ولادِ آخرْ زمن، دي البتّ مولودة قبل منّك باربع سنين يابن سوسن. ياميّه من تحت تبنْ، ساهي وتحته دواهي صحيح. ياخْواتي!

أتجنب النظر إلى خَضْرة، متربعة - جنب حميدة البَرْصَا - على أرض المعدية الحديدية الرطبة - لا يصح طبعاً أن تجلس على الدكة الخشبية مثل أسيادها، هل هذا يصح؟ - ذراعها على القُفَّة الكبيرة المغطاة بخرقة نظيفة مغسولة جيداً، باهتة التلوين - ربما كانت فستاناً من فساتين لندة القديمة؟ - وتحت جلابيتها السوداء نصف الشفافة تبدو جلابية أخرى ملونة بأزهار حمراء صغيرة وكثيرة - هل هي أيضاً من فساتين لندة؟ - وطَرْحتها الشفافة السوداء تنسدل على ظهرها حتى أرض المعدية. تُخفي بيدها الممسكة بطرف الطرحة نصفَ وجهها الأسمر الصابح. كان فخذاها المدوّرتان الملفوفتان قد ارتفعتا إلى أعلى قليلاً، في تربُعها على الأرض المنداة قليلاً، تحتنا.

أدخلتْ ساقيها وطوتهما تحتها فبانت لوركيها استدارةٌ وبضاضة خاصة، حتى من تحت الجلاليب التي التفّتْ عليهما بإحكام ووثاقة في هذه الجلسة التي ليس فيها أدنى نيّة واعية للإثارة، ولكنها - لذلك - مثيرة جداً. لا أريد أن أنظر إليها، لكني لا أستطيع أن أنساها.

هأنَذَا أعبر من ضفّةٍ إلى أخرى، دائماً، بلا بدء ولا انتهاء، وعلى فمي قرص المليم الأحمر البرونزيّ الكبير، يغلقه، أجرة المعدّاوي.

المعدّاوي خشن الوجه، أخرس، لا غَمْضَ لعينيه، له مأوى خفيّ على الضفة الأخرى.

أسعى دائباً إلى قاتلِ التنّين، أحمل عنه كَفّارة خطيئة، في منفى مقيم، في أرض الثلج الشمالية، أقصى أقاصي المعمورة ومعه وعلى رغم كل نسوان الشَبَق والثَمَل والشهوة أريد النظامَ والعقل والعدل والموسيقى.

لن أصل أبداً، لن أدفع الأجرة؛ دائماً بين شطّينْ.
أعرف هذا، ألا أعرفه؟
في داخل هذا المثلث النسوي كانت الأغنيـة تهزّ قلبي الـطازج الغريـر.

أما في الطرّانة فقد صنعتُ، على يدي، من صبغةِ هدوم وجدتها، مسحوقاً ناعماً، في بيت ستي أماليا، حبراً أحمر فاتح اللون.

وعلى ورقٍ نصف شفّاف رمـاديٍّ قليلاً ـ كـان الورق عـزيزاً عـليَّ وصعب المنال في ثاني سنوات الحرب، ومازلت حتى الآن أكنز الـورق الأبيض والمسـطّر كما يكنـز الجوعـان أرغفـة خبـزٍ لن يـأكلهـا أبـداً ـ وبـالـريشـة الخشبيـة السـوداء أُمّ سنّ نحـاسيّ رفيـع، وبلُغـةِ الصبـا وبسذاجةٍ لا اعتـذار عنها، ولا بُـرء منها، كنت أكتب عـلى الطبليـة، متربعاً على الشلتة.

قبل أن نخرج من الطرّانة مبـاشرة، ونحن نستعد لـركوب الحمـير حتى نقطة المعدية في الريّاح، وصل البوسطجي ـ عريان أفنـدي ـ إلى الساحة الصغيرة أمام بيت جدي ساويرس، تحت الجميزة الضخمة.

منديله المحلاّوي، مربّع التشكيـلات الزُرقِ البـاهتة، غـيرُ نظيفٍ تماماً ومندّى الحوافِ من العرق تحت طربوشه.

نشِطٌ وعفيٌّ مع أنه ناحلٌ ضاوٍ في رُفْع الإبرة، صفّق بيديه قبل أن ينزل تماماً من على حماره الميري الأبيض العالي، وهو يهتف:

ـ عمي ساويرس. بوسطا. . ااه. ! يـا صباح الخـير على أصحـاب الكرم والخير. . يابتّ ياخضرة إديني شـوية اللوميّـة أُمّال يـابتّ. أبِلّ ريقي يابتّ. . !

وهو ينظر إليها نظرة شَبَقٍ صريح، ويسلمها البوسطة.

لم يكن في البريد إلا الأهرام - اشتراك - يجيئنا كل يوم بالمستعجلة التي تصل إلى محطة كفر داود ومكتب بريدها في تمام الثامنة صباحاً، ومجلة «الاثنين والدنيا»، تصل منها نسخة يرسلها أبي من اسكندرية، كلّ حِينْ ومِينْ، حسب التساهيل.

ومنها استأثر بي، من وسط أشياء ساحرة كثيرة، مجهولة، أنّ ملكة الاستعراض المسرحي بديعة مصابني تقدم من يوم السبت ٣٠ نوفمبر ١٩٤٠ في كازينو أوبرا بميدان ابراهيم تليفون ٤٤٨١٤ الاستعراض الموسيقي الثاني: «ساعتين حظّ» ٧ مناظر حافلة بالمفاجآت المبتكرة تأليف الأستاذ الروائي المعروف أبو السعود الأبياري وتلحين الموسيقار المجدد الأستاذ فريد غصن وميزانسين الرقص للبروفسور إيزاك ديكسون ويشترك في التمثيل الراقصة العالمية تحية كاريوكا والمنولوجست المحبوب اسماعيل ياسين مَطْعم من الدرجة الأولى بار أمريكاني موزيكهول.

في تراب الطرانة وجفائها وخضرتها الخام كان ذلك مغوياً.
لم أكن أعرف بالضبط الموزيكهول.

لماذا تصورته إذن ساحة فسيحة خاوية تقريباً، مبلّطة ببلاطٍ صقيل، وفيه بيانو عريض جداً على منصة عالية جداً، وراقصات مثل اللاتي فتنتني صورُهن في المجلات - لم أكن قد رأيتهن في السينما بعد - مثل التي أثارتني، وتجسدت لي، وساورتني بها لذّات الصبا الأولى، وهاجني بها القذف البريء شبْه الطفوليّ، في العدد ٢١١ من مجلة

«الاثنين» نفسها، قبل الحرب بقليل، سنتين، يمكن؟ اسمها سعاد فهمي بفرقة بيا بكازينو مونت كارلو، ومع أنني اسكندراني فلم أكن قد عرفت مِن هذا الكازينو إلا لافتة على الكورنيش عندما مررت به، ويدي في يد أمي، في طريقنا إلى حمّام الستّات، في الشاطبي، يوم الأربعاء.

النار تدور في عينيه الذابلتين، والكلمات ترتعش على شفتيه الجافّتين، لكنه لم يلقِ عليها نظرة، وسار في بطء، ثم أزاح الستار عن نافذةِ شرفته التي احتضنتها أفنانُ الكرمة المتدلية كما تحتضن أمٌّ محزونةٌ طفلَتها الحبيبة إلى قلبها، وعطّرتها أنفاسُ الأزاهر البيضاء، وألهبها الأرَجُ الدافىء المثقل المتساقط من شجرة التوت العملاقة، كأن هذا الدفء يسود ضريحاً تتوقد فيه شموع.

سعاد فهمي تلتفُ بفستانٍ مفتوحٍ من تحت الإبطين فتحته واسعة، يبدو منها جانب من ثديها الرشيق، وتنزل الفتحة حتى منتصف خصرها. ويدور نسيج الفستان المنسدل ملتصقاً بخصرها وبطنها وفخذيها، سابغاً حتى ساقيها، مشقوقاً من جانبه، حتى يصل إلى الأرض في طيّات مَوْجيّة، والحزام القماش المضفور، لامعاً، يحصر خصرها، وهي تمسك بطرف منه، وثيقاً محكماً على أعلى البطن، تحجزه بإصبعها الإبهام بينما تفرد يدها على بطنها، مصبوغة أظافرها بظلٍّ قاتم. كانت الصورة بالروتوغرافور الذي تستخدمه دار الهلال، بين الرماديّ والرصاصيّ الذي به نغمةُ الأزرق الشاحب، وكانت ترفع ذراعها العارية من فوق نهديها الصغيرين، وعيناها فيهما نظرة

غـواية مستميتـة، شعرهـا وحف ثقيل يسقط عـلى جبهتها الضيقـة في نصف دائرة أثيثة التكوين وينسدل حتى كتفيها العاريتين.

لم أصنع غراماً قط ـ في حقيقة الأمر ـ إلا مع خيالات جَسَدانيّة.
حتى في عِز التجسّد والأرضيّة، كُنّ تخييلات.

أمـا صـواعق الحب والعشق التي انقضّتْ عـليَّ ـ كـما يُقـال ـ فقـد ضربتني ثـلاثاً. لم أكن أملك لهـا ردّاً، وارتجفتْ الحراشيفُ بـالشحنة المهلِكة، وصلصلت دروعُ الحيّة العظيمة التنّين، بلا جدوى.

لم أكن قد ذهبت إلى مصر ـ القاهـرة إلا مرة واحـدة أذكرهـا، من سنين، وكنت صغيراً جداً، زُرنا المعـرض الصناعي الـزراعي، يمكن من ثماني سنين، يعني سنة ١٩٣٢؟ وذهبنا إلى بيت قريبنا الكمسـاري جنْب خط السكـة الحديـد، تحت مطرٍ أحـال الحارة الضيقـة إلى ممـرٍ مُوحل مستحيل، وبيّتْنا عند عمتي ديماريس في شبرا واستيقظتُ يومها في الفجر على صوتِ أذانٍ لم يطرق مسامعي قبلها ولا بعـدها أعـذبُ منـه ولا أشجى. في سكينةِ الفجـر السـاجي نـان ثم سـلامٌ لا يمكن وصفـه، لا ينتهي جمالُ تـرداده، مازالت دعـوة المؤذّن يومهـا إلى حيَّ على الصلاة، والشهـادتان، بـترنيمٍ عميقِ الإيمان، لهـا كلها أصـداء باقية لا تبارِح جنبات روحي التي لم ترتوِ قط، ولا تفرغ أشواقها.

ياه..!

بدت له من الشرفة تربةُ مصر الغامضـة الحارة، وقـد تدثـرتْ بغلالـةٍ ليليةٍ شفافة.

رأى النجـوم المتألقـة كنيران صغـيرة مشبـوبـة في السـماء الـزرقـاء

ينعكس وهجها على مياه النيل المنحدر في جلال وهو يغنّي مُهَمهِماً بأنغام قديمة متآلفة الألحان واللغات، وعلى ضفافه كانت عرائس المياه تتمدد في تلك الليلة الصيفية، ملتفّات بضوء النجوم، هامسات بأحاديث الأساطير التي تتجدد أبداً ولا تموت. عذارى الليل المرهوبات اللاتي يضطجعن على الشاطىء في ليلهن الأبدي، بشعورهن السوداء المتناثرة، وعيونهن العميقة الساجية يغرين مَنْ قَاده القدر إلى أذرعهن، فيرتمي بين أحضانهن الناعمة، ولكن لكي يغُصن به إلى الأعماق، ويخرجن، وحدهن، داميات الشفاه، ملتهبات الأعين بنارٍ مثلوجة.

أما في الصباح، بعد فطور الفول البيتي المدمس، بالزبدة، وعيش البَتَّاوْ الطازة، والشاي باللبن في الكوب الزجاجي مخضرّ اللون قليلاً، فقد كانت زيارتي لبيت رحمة ولندة يعني بيت خالتي سالومة وخالتي روزة، طبعاً، شبه يومية، أو مرتين في اليوم أحياناً.

كان بيتهم من البيوت القلائل، في الطرّانة، التي من دورين. في آخر زقاق ضيّق، متلوٍّ، ينتهي فجأة بحائط سَدّ، ترابُه الناعم يعلق بقدميّ العاريتين في الشبشب الرفيع - مَنْ كان الذي يهتمّ بلبس الجزمة في القرية، على الصبح؟ ألم تنتهِ أيام المدرسة، والحفلطة؟، الجلابية أو البيجاما المخطّطة فيها كل الخير والبركة - وكنت أحاذر أن تغوص رجلي في أقراص الروث الطرية المدورة، أعرف أن خضرة سوف تجمعها لتصنع منها الجلّة الجافة التي أرى صفوفاً منها فوق سطح البيت.

مدخل البيت ـ بين حائط الـزريبة وجـدار الحد المصمت المبني من الـطوب النيء ـ مسقـوف وضيق ومـظلم من وراء البـاب الخشبي العتيق ـ ذي السُقّاطة الخشبيـة أيضاً ـ التي تـرتفع بفعـل حبلٍ يُشـدّ من فـوق، من الـدور العلوي، لينفتـح البـاب، ثم تعـود السقـاطـة فتستقـر في تجويفٍ مُعَـدٍ من الناحيـة الجُوانيّـة للبـاب. وقـد غـادرت البهائم كِنّ الزريبة من الصبح البَـدْرِي، لكن رائحتها مـازالت كثيفة وراكدة تفعم الحس، لا تنجاب ليل نهار.

عندما دخلت، كانت خضرة تكنس الزريبـة بسُباطـة نخْل خشنـة السعف، مربوطة بشمروخ سنْط مسوًّى واضح العُقَد.

في جلابيّة الشُغل السوداء الباهتة المُلطّخة، شق طولي مفتـوح على جنْب، ينـزل حتى تحت خصرهـا، يلوح منـه قميص داخـلي بلون فـزدقي كالـح، خشن النسيج، وثـديهـا الصبيُّ الأسمـر يفلت منـه، يهـتز ـ وهي تشتغل ـ متـماسكاً وغضّـاً، منعشاً بشكـل مدهش، تحت الثيـاب غـير النـظيفـة، دون أن تلقي أدنى اهتـمام إلى نـظرتي النَهْمـة الخجول معاً.

بنتها الصغيرة تلعب بكوز ذرة ناشف نصفـه قد عـريَ من حبوبـه الجافّة، لفّتْ رأسهـا بخرقـة داكنة يبـدو من تحتها شعـرها الأشقـراني الملبّـد، نظرت إليَّ بعينـين واسعتـين خضراوين، متسـاءلتـين وكـأنهما غَزِلتان، بلا خجل.

أما آخر أولادها فقد كـان يلتصق بساقيْ أمّـه وهي تكنس، يتدأدأ

وهو يشدّ جلابيتها، ليس عليه إلا قميص قصير يكشف عن قضيبه الصغير، وخصيتيه البريئتين، وساقيه المقوستين قليلاً.

ـ ياواد خُشّ جوّه اختشي يُوه.. يابِتّ حُطّي عليه هِدْمة، يادي العيبة، ياهْوي!

ولكنه ينظر إليّ وقحاً بوقاحةِ الحياة الطفولية الجديدة المنطلقة من سخونة الروث، وجَسَدانية الجاموس الجسيمة، وحنين الأرض الذي بلا تورّع ولا وعيٍ تقريباً يتحدى الحبْسة وزمْتة الحيطان.

وكانت سائر البنات سارحات في الحوش، تحت النخلة، وأمام البيت في الوَسَعاية المحجوبة عن الطريق؛ فهل رأيتُ في ركن الزريبة ظلالَ رجالٍ كثيرين؟ أم رأيت رجلاً واحداً، وكأنه كثيرون؟ أسعد الأشقراني أمْ عمّي سلوانس بعينيه الخضراوين الثاقبتين تُشعلان ظلال الكِنّ؟ رَجُلها حجازي أم ظِلّ الوادْ لافنْدي الاسكندراني بن عم قلْدس الصعيدي، القادم من راغب باشا، الذي يموت حباً في الحوريّتين لندة ورحمة، ويتلظّى بنيران شهوةٍ جافة؟ فهل ظِلال الرجال دائماً، تترصدني وتتربص بنسواني؛ لا، بل كان هناك، رأيته في عتمة الصبح.

كنت أعرف أن حجازي زوجها، الأُجَرِي، يشتغل يوماً ويبطّل أياماً، ويسافر بالشهور مع التراحيل في مواسم الشغل، لكنها تحبل كل عام.

وعندما يقعد في البلد كان يأخذ البهائم أحياناً للمرعى على التّرع أو الرّيّاح أو جسر البحر الكبير.

وكـانت تلك شُغْلة الصبيـان ـ أو حتى البنـات الصغـيرات ـ لكن الحَاجَة وحْش. وكان للرجل وجهُ وَحْشٍ وضحيةٍ معـاً، خشن مجدور جافّ كفرعِ جميز عتيق وفيه أيضاً نضارته المحجوزة. رأيته مرة يكسح الزريبة ويُخـرج منها طبقـاتٍ قديمـةً جافـة من مخلّفات البهـائم يعجنها بالروث الـطازج ثم يُقَرِّصهـا ـ كالنسـوان ـ ويفرشهـا في الحوش تحت النخلة ليصنع منها الجِلّة، وكان يلبس خيشة متصلبة من القَذَر، عـلى اللحم.

وكـان هو وخضرة، ووليـدها الأخـير، والبنـات الخمسِ ـ في وِشّ العَدُو ـ ينامون جميعاً مع البهائم، في ركن الزريبة، أَهُـو مِنُّه حَـرَس، ومِنُّه ونَس، ولهم على أي حال، من الخير نصيب!

ـ عَوافي ياخضرة.

ـ يعافيك ياسيدْنا لفندي ياخويا، ويجعلْ لك في كل خطوة سلامه.

رفع رأسه إلى السماء فرأى النجـوم الأبديـة الدقيقـة تلتفّ بالقمـر الشاحب الصغير الذي اكتسى بسحابةٍ بيضاء شفّافة.

النجـوم أنقاض قصر أبيض تبـددت بقايـاه وتشتت حطامـه حول بحيرةٍ نصف مستديرة من فضة هـادئة. رأى السحب الجميلة تسري في صمت إلى أرض خرافية مجهـولة، أشرعـة حالمـة تحمل في قـواربها أبناء آلهة، هاجِعِين، أبناء خنسو أبوللو، وبناته القمريّات الشُمُوس.

لفحت وجهَه الملتهبَ نسماتُ ريحٍ دافئة عبقت حـواشيها بشـذى زهرٍ برّي تهبّ من ناحية المقبرة حيث تظلل الأشجـارُ أشباح القبـور، حيث تتـأوه العِـظام المفتتـة، تحت السنْط والنخيـل العقيم، حيث

تضرب جذور النبْق والجمّيز في التربة خلال عيون الجماجم المظلمة التي تُحدّق بلا غمْض في ليلها الأبديّ، حيث سيقان أشجار التوت والمانْجه تخترق الهياكل في التراب، لكي تحمل الأوراق الغضّة، مشرقةً متفتحة، في نور السماء.

ناديت من تحت:

- خالتي روزة. خالتي سالومة..

لم تكن إحداهما خالتي على الحقيقة، بل هما أقرب إلى خالات أُمّي، كان ابن عمهما حنّا بيه الذي يعيش في شارع جانبي من الرصّافة في اسكندرية، وتحرص أمي على أن تعطيه حقّه من فطير الملاك ميخائيل الذي تصنعه لي في عيده، وله ابنٌ على اسمي أيضاً، أكبر مني كثيراً وعمَّر طويلاً وكان شاعراً عمودياً نُصّ لِبّة نال حظاً من الشهرة.

جاءني الصوت المشروخ الرفيع:

- إطلع يابْني.. إطلع ياضَنَايَ.. يالندة.. يارحمة.. شوفي ابن خالتك، افتحي المندرة البَحَري.

كانت خالتي روزة وخالتي سالومة توأمين مصنوعتين على قالبٍ واحد. لم أرهما قط - حتى في عِز الصيف - إلا بالثوب الأسود السابغ تدور على صدره سُفْرة ملفلفة من قماش حريري لامع بالياقة العالية المقفلة التي تضمّ، بإحكام، العنقَ المجعّد الضاوي، عنق ديك رومي مخضرم، وبالحذاء الأسود الرجالي واطىء الكعب صيفاً، وبكعب كباية له أزرار جلدية مدوّرة متلاحقة على الساق الرفيعة شتاء،

وبالشراب ذي القماش الثقيل صيفاً وشتاء. أما في أيام البرد في آخر سبتمبر، فقد رأيتهما تزوران ستي أماليا بالبالطو الأسود الحرير - التاريخيّ - على الفستان.

لم يكن يبدو لهما صدر أو عَجُز، كانتا مسطحتينْ قائمتيْ العود بصلابة، ناحلتينْ بجفاف.

وكان بُخلهما يُضرب به المثل في الطرانة كلها، بالفعل.

- يوه إياك حتعمل زَيّ ست روزة مش لادِذْ عليها حتى كُباية الشاي.. !

- زَيّ الست سالومة قُولَح دُرة ناشف مايبزّش اللومّيَّة.. !

وكانوا يحكون عن كنزٍ من الجنيهات الذهب الحميدي والانجليزي والورق الكبير أبو مَدْنة، كأنه مناديل خضراء. خبيئة مدفوسة في كوّةٍ مموّهة بالطوب النيء تحت السرير الحديدي ذي الأعمدة العالية، أو يُقال إنها في المصطبة الطينية في الدور الفوقاني، في المندرة الأخرى التي لا تُفتح لأحد قط، تحت أكداس المراتب القطن والألحفة والأكلمة السيوطي، وتحت النافذة القِبلية المقفلة دائماً، ذات القاعدة العريضة التي وُضعتْ عليها كتب الترانيم وتعلُّم اللغة القبطية وألف ليلة وليلة بأجزائها الأربعة منزوعة الأغلفة وجزء واحد من كتاب «الأغاني» المطبوع بالحجر وَرَقُه قد اصفرَّ وجفَّ ويوشك أن يتهشم من فرط هشاشته.

كان الباب لا يُفتح أبداً، بعد أذان العشاء الذي يأتي من بعيد، من الجامع المطل على الريّاح البحيري.

خَضْرة، وحجازي إذا كان في البلد، وأولادهما ينامون من العِشا ويصحون من النجمة، والخالتان كالديدبان، حدأتان رابضتان.

أما لندة ورحمة فقد كانتا تبيتان عندنا ـ يعني في بيت جدّي ساويرس ـ إذا عزمتا على السهر أو العشاء معنا ـ بعد أن تأخذا الإذن اللازم بطبيعة الحال ـ وخاصة في هذه الأيام، عندما كانت خالتي وديدة مخطوبة لعمي فانوس، وبنات العائلة والستات والقريبات والجارات يعقدن حلقات الغناء الفلاّحي والطبل البلدي المرتجل، على مصطبة بيتنا المكشوفة، في نور الشعلات الحمراء المتراقصة في كيزان الصفيح المعمولة مصابيح، وكنا نسميها «الشيخ علي».

أيّ إصرار عنيد يدفعني في وسط مثاليّات الحب الخَجول المكبوت، واضطرابات القلب وإحباطات التقاليد الفلاّحي والعادات القاسية، وعصفات الشهوة الخفية، وعلى نور «الشيخ علي» المتهافت المهتز، أن أواصل الكتابة بالحبر الأحمر الفاتح مقتعداً الشَلْتة الناشفة، مُسنداً الورق الخفيف نصف الرماديّ على مِهادٍ من صفحات «الأهرام» القديمة، مفروشٍ على خشب الطبليّة.

سَرَتْ في جسده رجفة.

إنه في ريف مصر، في كهف أحلامه، في مثوى آلهته، في موطن السحر والخرافة والأشباح، في مهد الضنْك والكدّ والحياةِ دائماً على شفا الموت.

ترك النسيم الدافىء يهبّ من الشرفة المفتوحة، واستند بظهره إلى الجدار، وهو ينظر إلى معبده.

صامتاً يتعبّد.

قال: أمازال في أحد أركان روحك؛ هذا الفتى الموجوع الساذج؟ أمازلتَ ترعاه، حتى؟

ألا تريده أن يموت، هو وشِعره الغرير الذي لا يساوي، في سوق الشعر، بَصَلة؟ ألا تريده أن يَعْبُر؟

قال: ألعلّه قد تمّ تحنيطه؟ من وراء قناعٍ مكشوفٍ للعيان؟ فهل جُمجُمته ملفوفة بأكفان الكتّان المهتوكة، لم يبقَ منها إلا القليل من حبّات الزجاج اللامع، أو المنطفىء؟ حبّات من ملح النطرون؟

قال: بل حيٌّ ينبض، برغمكَ أو رضاكَ، سيّان.

قال: مدفون تحت تراب الكلمات.

٢ ـ بوبيللو

عندما وصلنا إلى الغيط الغربيّ، ونزلنا من المعدّية على سقالة خشب، مَدُّها المعدّاوي على جرف الرياح، فوق الطين المبلول الأسود الذي ينزّ بماء الفيضان المكتوم في جسم مادته الغنيّة، كانت الشمس قد حميت.

تحت حلقةٍ ملتفّة من أشجار السنط والجازورينا وشجرة نبق واحدة عريضة الجذع، عريقة، متهدّلة الأغصان، فرشنا على الأرض أوراق الذُرَة الخضراء الطرية، طبقة فوق طبقة.

كانت خَضْرة تُهوِّي على النار الموقدة من حطب القطن وقوالح الذرة.

وكانت كيزان الذرة التي نُزعت للتوّ من أغلفتها الخضراء الحريرية الملمس تطقطق على الجمرات سريعة الانطفاء، لا تكفّ خَضرة عن تزويدها بالوقود وتهويتها بجانبٍ من صفيحة مسطّحة صدئة مازال عليها آثار من رسم القوقعة وكلمة «شل» باهتة الاحمرار. الدخان يصعد من الكانون المرتجَل المعمول من طوبتين قائمتين على طولها، حلقات الدخان المتصاعدة لها لفحة نفاذة من الاحتراق سرعان ما تخفّ ذؤابتها وتتطاير في الهواء.

تغدينا على الفطير المثلتت المسقسق بالزبدة الخالصة، كان مَنَابي معه ورك بطة محمّر فيه حلاوة الدسامة التي تتأتى للبطّ المسمّن، تضعه ستي أماليا تحت رِجْليها، وتزغّطه مرتين فِي اليوم، على الفول والذرة

والكريات المعجونة بالماء المعمولة من الردّة والطحين وقليل من السمسم.

عزم عليَّ جدي ساويرس بالكونياك، أصهبَ في كأسٍ صغيرة مضلّعة الزجاج تبرق وتشعّ تحت تراوح هفهفة الظلال ونور الشمس.

كانت نسمة الهواء قد اشتدت، وقد اقترب العصر، وحفيف الشجر له موسيقى، ومياه الفيضان الحمراء المتدفقة في الرَيّاح لها هدير خافت ومدمدم في ارتطامات أمواجه ودوّاماته، ونحن نهشّ الذباب الذي تجمع حولنا، يحطّ علينا بلا هوادة، بعناد، والمنشّة الخوص رفيعة الفتائل ذات المقبض العاجيّ في يدي عمي سلوانس وفي يدي جدي ساويرس، لها صوت احتكاك ووشيش يشرئبّ له الجلْد: أزيز الدبابير، والفَراش سريع الرفرفة بأجنحته الشفافة والفضيّة، وخوار الجاموسة المربوطة في الساقية يختلط في مسامعي التي أحدَّها الكونياك وأرهفها، بدندنة عمي سلوانس وشجوها المكتوم ورضيت بنار البعاد، ياللي راعيت الوداد، وسمعت نجوى الفؤاد، أفديك بروحي، ونباح الكلب الضروريّ الذي لا بدّ أن يرتفع بإصرار، وخوف، من على حفافي الغيطان.

ذهبتُ، في آخر النهار، إلى آخر الحلقة المفروشة بأوراق الذرة المشعّثة الآن، وقد جاءتها أشعة شمس الغروب من على جَنب، ناعمة ومنبسطة وبدون ظلال، وجلست جنب خضرة، جاءت ساقاي العاريتان تحت الجلابية البيضاء التي تَربتْ أطرافها الآن، بجانب فخذها المدورة، وهي متربعة في جلستها، بعيداً عن «الخواجات»

لأنها تعرف قدرها، ولكنها سلطانة في بَذَخ الجسد الحُرّ الذي يفيض بتدفقٍ من الحنْكة والبراءة والمعرفة غير المنطوقة معاً.

قلت لها: خَضرة، قَشرِيلي كوز دره كمان، وحياة عينيكِ.

كانت في نظرتها إلى الولد الصغير الذي كنته مؤامرة وتواطؤ، وجرأةُ المرأة التي تعلّم الصبيّ كيف يعرف ذكورته.

أكلتُ الذرة نيئة طريّة تشرّ بماءٍ لبنيّ في فمي له حلاوة خفيفة ومفاجئة، والنمل الكبير، حرامي الحَلّة، البنّي الفاتح، يجري بسرعة خاطفة من بين ساقيّ وتحت وركيها، يحمل رزقه من بين أوراق الذرة الخضراء العريضة، ويهرب به إلى جحوره واضحة الثقوب في تراب جسر الرَيّاح.

قالت خضرة، من غير مبالاة:

ـ بوبيللو؟ كوم المساخيط.. ! دا من غضب ربنا جَلَب عاليهم واطيهم، أعوذ بالله من غضب الله.

كان حسّي باللحم الأسمر الناعم المسترسل يقظاً الآن، ومتوتراً، ولذته مسترجَعة، حَية غير راكدة.

هل هي استعادةٌ لا تكفّ عن المثول؟ هل هي الآن سورة الكونياك، والزَفَر السمين، وحلاوة ثمار الأرض الغنية؟ أم هي حُمَيّا خيالات الصبا التي لا يُكبح جماحها؟

هل كانت علّمتْني من فنون الشبق ألواناً؟

أم كان هذا اللجَجُ من عربدةِ الغيوبِ؟

فوح التراب المبلول الذي جفّ من وقدة النهار ونفْح خُضرة أوراق

الذرة التي تموت تحتنا ولفحة روث الجاموسة بين حين وآخر، كأنما كلها تزيد من سعار نشوةٍ أرضية مكتومة في روحي.

كانت خَضرة تضع على رأسها الطرحة السوداء الشفافة التي انزلقت قليلاً على كتفيها، تشفّ عن مدوّرة زرقاء ـ زرقتها داكنة ومخايِلة قليلاً ـ تحت سواد نسيج الطرحة الذي يهفهف في النور، تتدلى على ظهرها ضفيرتان من شعرها الغزير، سميكتان، مفتولتان بشريط من قماش المنديل الأزرق الذي يبدو الآن ناصعاً إذ يلتفّ حول شعرها الوحيّ الأسود.

سمعت خالتي روزة تطلب من خضرة أن تضمّخ شعرها بالجاز، كانت تطلب منها ذلك بانتظام مرة في أول كل شهر، لتنقّيه تماماً من كل واغل.

وبعد أن جفّ الجاز وفاحت رائحته في مدخل الدار رأيت خضرة تمسّده ببطء، بحركةٍ شهوية.

أقفلت على نفسها الباب الخشبي الذي يسد الكِنّ المسوّر بالطوب، في الزريبة، ويُظلِمه.

من فوق، وأنا أقرأ لخالتي روزة صفحاتٍ من «ألف ليلة وليلة» كنت أسمع وشيش وابور الجاز تحت صفيحة الماء المملوءة من عند الرأس الحجريّ في النيل ـ حيث المياه أسرع جرياناً وأصفى ـ وعندما نزلتُ شممت من عندها رائحة ميّة القسيس التي كنت أشتريها من سوق التلات في كفر داود، وأهديتُها خضرة، خلسة عن العيون.

موج شعرها الأسود المتلاطم يغمر جنْبي وصدري وأعلى بطني،

وهي تنحني عليّ، في الليل والسرّ ـ بينما النهار ساطعُ الضحى في الخارج ـ فيه رائحة حرّيفة وحوشيّة ـ قالت لي مرة إنها تدق في الهون حباتٍ من القرنفل، وعين العفريت مع قشر الرمان الجاف، تنقع المسحوق في قليل من زيت الزيتون، وشيء من الكحول، ونقطة ريحة صندل، وتستخلص منه ما تمسّد به شعرها. قالت لي مرة أنت تجعل من رائحة شعري أشبه برائحة لبؤة متحرقة للسفاد. حسّ نداوة شفتيها إذ تنضمان عليّ، وحرارتهما، وعبثهما بي، لا توصف لذته، وعندما يوشك أن يصل إلى الذروة ـ مَنْ يطيق احتمال حرقة النشوة؟ ومقاربة التمام؟ ـ عندئذٍ ترفع فمها بحنكةٍ وذكاء جسديٍّ حصيف، حتى يطول الأمد.

توهّتُ بشبقِها.

غالتْني وجمحتْ بي، في سورات جسدها، في مفازةٍ لا منجى منها، لا منجى منها حتى الآن.

خبّاتُ جسدَكِ في قلبي، نابضاً، مطالِباً، عارم الحياة، حتى الآن، حتى الآن.

قال إن المصابيح الشرقيّة المشغولة بنمنمة النحاس كانت تصبّ ضوءها الأزرق الوديع، تلقي هنا وهناك أنواراً خفيفة مرتجفة وظلالاً شفافة، وبين لوائح السَنَى وغمْض الظلّ تناثرت التماثيل الصغيرة، فاتنة حالمة، بقايا روح جمدت في قِطَع منحوتة من الحياة.

عيناه تستقران فقط على تمثاله الأخير.

أفرغَ في المرمر الأبيض الناعم كل كؤوس حياةٍ مترعة بخمر

الأحزان، والأحلام، خمرَ نشوةٍ وكآبةٍ، سُكْرَ القلب الذي لا يُراعِي.

ينظر إليها متولِّهاً، روحه هي محراب قدسها ومذبح بخورها وصرحها المحيق؛ تحت قدميها شظايا أحجار متطايرة وجذاذات المرمر لامع الحواف وأدواته الحديدية القوية، الأزاميل والسكاكين والخطاطيف والإبر والمثاقيب. تثوي، هي، بين بقايا النُحاتة وبين تخاييل الظل وارتعاشات لهفة النور.

يمر بيديه المحمومتين على شعره الأشعث المغبّر.

بنت، حورية، الاهة، من مصر، تحلم؟ أم تَرَى ما لا يراه البشر؟ مضطجعة في مخدعها الرخامي متموج الطيات، جسمها الغض تكتنفه غلالة تتثنى وتتهدل كأنما تحتضن منها الروح، بشغف. رفعتْ وجهها المرمريّ النحيل الصقيل، واعتمدت رأسها الأنيق بذراعين عاجيتين عاريتين، وقد انسدل شعرها، غدائرَ حَجَرٍ مضيئة، عميقتينْ في محجريها، توحيان بسعة لامحدودة، بنورٍ داخليّ مكتوم، أسبلت جفنيها الثقيلين على عينيها، أهدابها ترمي ظلالاً طويلة على الخدّ الشاحب الأسيل، زواياه حادة التدوير، وناعمة، وشفتاها الممتلئتان نصف مفتوحتين، مستعدتين للتلقّي.

صَمُوتٌ، أنينُها لا يُنطَق به، في وهجٍ غامض غير منظور.

قبل أن نصل إلى الغيط الغربي كان بوبيللو يرتفع إلى علّوٍ شاهق، الكيمان التي يحمل منها الفلاحون مقاطف السماد الكفوري الغنيّ تقطعها، في حدودٍ رأسية تقريباً، آثارُ الفؤوس.

ركام من الشقافة، كِسَر سميكة من الزجاج الملون بالأزرق

الفرعوني والأصفر الداكن نصف الشفاف، ناعمة في اليدين، غير جارحة، أحجار جيرية، ورملية، عليها نقوش نصف مطموسة بالحرف الهيروغيلفي والديموطيقي واليوناني والعربي الكوفي، راكمت السنينُ المتعاقبة الطوال الأكوامَ العقيمة من الحجر والزجاج وأنقاض الرخام. دفنتها تحت كيان التراب التي تكشفت فيها فجوات غائرة جَرَفت منها أجيال من الأيدي الصَبور الدؤوب، من جَدٍّ لأب، حُفَراً من السباخ الخصيب. رفاتُ أجسام بائدة وفتاتُ أرواح لا راحة لها إلا في أرض الغيطان المسقيّة بماء الفيضان وطميه. ترابُ الكهنة والشعب والجنود والتجار يغذو القمح والبرسيم والشعير ويمتزج بعصارة جذور الجميز أبديّ التكرار والنبق العتيد. أعوادُ الذرة الغضة وحبوبها السكريّة، دورةٌ مشرقة الحلقات أم ثأرٌ يأخذه لنا ولنفسه الفلاحُ الذي لا يموت أبداً. هل يموت الآن في ذبذبات الفيديو وكَهْربات الإسمنت والطوب؟ ابن النور، عدوّ الظلمة، وعدوّ كل ذراريها الجافة، ألايزال يضرب بفأسه الأرض - ألايزال؟ - كما يصنع الحب مع امرأته، يتلقى أول قطفات المحاصيل بعد أن أنضجها، سقاها من عسل النيل القديم وحَماها من لظى الصيف في الشراقي ومن ندوة الحشرات والديدان وقضم الجرذان ونهش الجراد.

أما في العصارِي، تقريباً كل يوم، فكنت أذهب إلى بيت عمّي أرسانيوس، وابنه فانوس الذي سيتزوج خالتي وديدة، لكي أجد رحمة.

لكي ألتقي بها.
ونخرج معاً من هناك، نتمشّى.

كنت أصفف شعري الثقيل بالبريّانتين وأغير جلابية النهار، ألبس أخرى نظيفة، زيّ الفُل، وأمسح الصندل المفتوح الذي سوف أعود به مترباً هو وقدماي معاً وبه ثقل من الطين اللازق في نعله من جسر النيل المرشوش، ندور حول الجرن الفسيح الذي يبدأ فيه نشع الفيضان ينزّ ببطء، في الأول، ويرتفع قليلاً، حتى يصبح بِرْكةً واسعة رقرقةُ الماء الراكد فيها تخفي السمك الصغير الذي يصطاده أولاد الفلاحين بالكوز، أو بالقفْش باليدين بسرعة وبحذق، من أين جاء السمك؟ لم تكن هذه التمشية الأفرنجي عندئذ موضع استغراب من أحد، الآن يجيئني رد الفعل المحتمَل - بل الواقع فعلاً - عند أولاد القرية بعفرتة أهاليهم، وعند أصحاب اللحى والجلاليب القصار الذين لم يكن لهم عندئذٍ وجود، وأصحاب حُواذ المرأة التي كلها عورة واحدة يجب كتْمها؛ كانوا أيامها يعرفون ساعة للقلب وساعة للرب.

نمشي حتى موضع الساقية الضخمة المهجورة، تحت جسر النيل المرتفع، ننزل إليها على حِجارٍ مرشوقة في جانب الجسر الترابي الهشّ من فوق، المتماسك عند الشطّ العريض، ونحن نكاد نتزلق، ونضحك من خشية الوقوع، أُمسك بيدها الرفيعة العظام، شفافة تقريباً، أُحس لها رجفةً من النشوة الحسية ومن إعزازٍ وإكبارٍ غير مُفَسَّر، ونجلس في ساحة الشط الواسعة غير بعيد من المياه الدفّاقة، على ذراع الخشب المترب المشقق، أسود الآن من الجفاف ومعووجاً، ساقطاً من عجلة الساقية الضخمة الغائرة قليلاً في تراب الشط. المياه - في ذروة الفيضان عاماً بعد عام - ترتفع حتى تُغرق الجانب التحتانيّ من هذه الذراع الجسيمة وتترك فيها، بعد أن تنحسر، خَطاً

هينْ التموّج يجدد هذا الجانب بلون داكن يظل على دكنته حتى العام التالي.

لم تكن رحمة تتكلم كثيراً - على عكس أختها لندة التي كانت تستمتع بشقشقة الكلام بلغوتها الفلاّحِي حلوة الجرس والإيقاع - كانت تسألني أحياناً عن دروسي في العباسية الثانوية، ماذا تتعلم هناك؟ وعن أخبار الحرب في الجورنال، وكنت أحكي لها بفقْهٍ وتدفّقٍ وتلقائيةٍ لم أعرفها مع النساء بعد ذلك إلا في النزر من الأحايين.

حكيت لها أن في وسط أوروبا، بلاد الأفرنج طبعاً، منطقة اسمها بوهيميا يسكنها ناس اسمهم التشيك وناس آخرون اسمهم السلوڤاك ولهذا جاء اسمها الصعب تشيكوسلوڤاكيا الذي لا يعرف أحد أن يقوله في الطرانة بذلاقةٍ ولَسَن إلا خالتي وديدة. وقعتْ الآن تحت سيطرة هتلر - كان هتلر مشهوراً في الطرانة - وأن على الحلفاء الانجليز والفرنسيين أن ينظروا في مسألة استقلال بوهيميا حتى يتجنبوا حرباً أخرى، وأن الأمة التشيكية لها تاريخ وحضارة عريقة، وأن هناك أحلاماً، وخُططاً، لإيجاد مَلكٍ يحكم في الوقت نفسه على بوهيميا وسلوڤاكيا وهنغاريا ويكون له ثلاثة عروش في ثلاث عواصم اسمها براغ وبراتيسلاف وبودابست. وقلت لها إن طائرات الانجليز ألقت منشورات على هامبورج وبرلين تدعو الألمان إلى الاستسلام وحكيت لها أيضاً عن ليدي الزابيث پيرس شقيقة دوق نورثمبرلاند التي أُعلنت خطبتها للماركيز دوجلاس فكانت هذه الخطبة نهاية سعيدة لنزاع ظل مستحكماً بين أسرتي الخطيبين زهاء ستمائة عام، وبالمناسبة حكيت لها عن روميو وجولييت، ونهايتهما الفاجعة، ودمعتْ عيناها قليلاً وكنت

ذَرِب اللسان في النطق الانجليزي القُحّ، لكنها لم تبالِ بذلك بل سحرتها قصة الحب فقط وكانت تصغي إليَّ بكل روحها، بعينيها العسليتين العميقتين. كأنها غادرت جسمها الآن، في المغارب. نعيق الغربان يزداد حدة وتواتراً على شجر السنط والتوت، فوق، هناك على الجسر العالي الذي كان يبدو بعيداً ومقطوعاً عنّا، خوار البقر والجاموس وثغاء الغنم العائدة من الغيطان، ولا بد أن نصعد الآن، ونعود قبل هبوط غبشة المساء، وإلاّ كان لأهلنا معنا حساب وأي حساب.

خيّل إليه أن روحها تسترسل مع أنفاسها الهادئة، مع أشجانها الحالمة، وأن نهْديها الصغيرين يرتجفان، فوق قلبها الخافق الملهوف، في نشوة حلمٍ ترين عليه الكآبة، وغلالتها ترتمي على ساقيْها المستلقيتين، كأنما تبغي أن تُقبّل قدميها - كما يصبو إليه أيضاً - ثم تُغفي متعبةً لاغبة في غمار أحلام غائبة، وشظايا الروح تشعّ منها الوداعة الحزينة التي هي ليلُ الحياة إشعاعاً غير مرئيّ. من هي؟ إلاهة أم طيف غير متجسد، ماثل في مخايل المرمر والأنوار؟ نظرت إليه وقالت له: تعالَ. تعال إليّ أيها المنهوك. تعال بين ذراعيّ، لكي ترتاح في حضني. أكانت حلماً من شطحات شبابٍ هائم شرود؟ أم كانت على جَمَد مادتها تنبض بالحياة كل الحياة؟ مضى إليها كالمسحور، أغمض عينيه، وتقدم، وركع.

قال الآن أعرف كيف عبد المصريون إلاهاتهم، وكيف كانت إلاهاتهم خالدة لا تموت.

قال إلاهة؟ شيء؟ امرأة؟ أم أنه هِي؟

مازالت مسبلة جفنيها، ترنو إليه من وراء أهدابها، تحلم أحلامها الوادعة أو الشرسة، لا شأن لها به. هي حرة. منفصلة، ليست شيئه. ليست له.

في الطريق إلى بوبيللو مررنا بمقابرنا، على مدقات مترِبة غير محددة المعالم بجانب الأرض النشعة بالماء الملح الفضيّ المغبّر في الشمس.

صعدنا إلى الربوة. مرتفعة قليلاً، منثورة بالتُرَب المبنية بقباب صغيرة نصف متهدمة، والتُرَب القديمة المنقضّة على الأرض وحطام أكوام الحجارة الصغيرة لم يعد أحد يتذكر لمن كانت التُرْبة. وبعد ذلك بسنوات عديدة سوف توصيني أمي بأن أدفنها ـ قلت لها بعد عمر طويل ـ بجانب أبيها جدي ساويرس، في بوبيللو، وتُكرر الوصية بإلحاح، وأَعِدها، بطاعة، ولكني لم أستطع، وصنعت لها قبراً غالياً في أرض المدافن بالشاطبي، في آخر شوارع موحشة، ولا أعرف ولا أهتم إن كنت سأُدفن فيه إلى جانبها، أم يكتفي أولادي بقبرٍ مرتجَل في مدافن مار جرجس بمصر القديمة.

حوّدنا على الكنيسة الصغيرة المقفلة، فتحها أبونا بمفتاحه الحديديّ الضخم، وعمّي جورجي يتحسس الأرض في ثقةٍ ومعرفة، بعصاه الغليظة، دون أن يخطىء طريقه إلى الهيكل وهو يخبط الأرض المبلّطة برخام قديم. كان عمّي جورجي، عرّيف الكنيسة، يستطيع أن يشعل سيجارة بعدسة مكبِّرة، من نور الشمس، بمجرد حس أصابعه المدرَّبة؛ ووقفنا وراء أبونا أندراوس، وصلّى بنا صلاة قصيرة ـ من غير أن يفتح المذبح أو حتى يعبر الحجاب لكي يدخل الهيكل، ثم تلونا

أبانا الذي في السموات، تمتمت معهم، لم أكن أحفظها ولا حفظتها قط حتى الآن، وجَثَوْنا أمام الحجاب ورسمنا علامة الصليب وباركنا أبونا وحاللنا، وخرجنا إلى نور الصبح الذي يعشي العيون ووضعنا الرحمة والنور على تُرَب أجدادٍ وأسلاف لم أكد أعرف منهم أحداً، سُكْنى التربة غربة نهائية ليس لها من مُقيل، ولكنها الوطن الأخير. من أين جاء أولاد الفلاحين ينطّون كالمعيز بجلاليبهم الباهتة المرقّعة، على اللحم، شعرهم المهوّش تحت الطواقي المغبّرة الملطّخة الله يرحم ميّتينك ياخواجه أرساني الله يرحم ميّتينك يا معلم فانوس، وزعتُ عليهم لندة ورحمة وخضرة المِنين والبِتّاو السخن من خبيز الفجر، والبلح الأبريمي الناشف.

كنا نَلمّ بقايا النهار، وقد شبعت أعضاؤنا من متعتها العضويّة البحت الحسية التي مهما قيل فيها عبر السنوات فلا وصفَ لمدى امتلاء نشواتها الراسخة في نواة الجسد.

وعلى شطّ الرَيّاح البِحيري في العصاري كانت البنات والنسوان يغسلن الهدوم والطشوت والحِلل النحاس وطواجن الفخار والأطباق الصفيح، انحسرت الجلاليب عن أفخاذهنّ السمراء، بوغْيٍ منهن، أمام الأعين، كأنه لم يكن في ذلك على أي حال ما يدعو لأدنى خجل، نَشِطات في الدعْك والعصْر والشطْف يضحكن ويثرثرن كأنهن في ساعة راحة من الضنك لا في ساعة شغل شاغل مستغرق للجهد.

كانت البهائم تعود من الغيطان في صف طويل، تثير التراب الناعم فيغلّفها في سحابةٍ لها طعم خشن في فمي، صورة تجسدت من

نحْتٍ قديم، وتحركت، لا أملُ استرجاعَها من ألف عـام، من آلاف السنين، قائمـة في اللحظة، لا زمن فيهـا. وقفتْ جـامـوسـة نـاتئـة العـظام، ونحن ننزل عـلى الخشبة الممدودة عـلى شط الجسر، لنـأخـذ المعدية، بهيمة من قَبْل التـاريخ، من قَبْـل الأزمان، بـاهتة السـواد، رفعت ذيلهـا فجأة، فـانكشف أمامنـا الشقّ الـطوليّ المفتـوح بلحمـه الورديّ الفاتح، طريّاً ومتماسكـاً يترجـرج، وانبعثت منه نـافورة ميـاه تبدو نظيفة رائقة أدهشني نقاؤها المنطلق بقوة، من غير أدنى حياء.

تـذكرتُ حكـايـات الـولـد بـرسـوم عن مغـامـراتـه الجنسيـة مـع الجواميس.

وفكّــرتُ، بســذاجــة قليـلاً، أليس واقــع الحيـاة العضــويــة، البيـولوجيـة، بكل مـا فيها، أقـوى وأعمق - بل وأجمـل أحيانـاً - من رهـافات الإخفـاء والتستّر ودعـاوي الرقـة والسمو المـزعـوم؟ أصـرحَ وأصدق على أي حال؟

لكن الســذاجة مـطلوبة الأن - الـبراءة والمكـاشفـة من غـير خبث الالتفـاف - في وجه تعقيـدات نصف قرن من الانتكـاس إلى غيبيات التـزمّت وضروب المكـابتـة وتعـلّات عنف القمـع التي تنتسب، بـلا أحقية، إلى الدين والشرع والخلق القويم.

فكّرتُ، بسذاجة.

آفاق الطين ممتـدة الآن على مشـارف الغيطان، وَحْشـة المغيب على الترعة الـواسعة مـطبِقة وشـاسعة معـاً، الصمت الآن، فجأة، تـامـاً،

محيقاً، ونسمة تهبّ فيصدر حفيف ناعم عن ورق الشجر المتكاثف الغائم في غبشة أول المساء.

سمعتُ أصوات الفلاحين واضحة النبرة جداً في الأفق البعيد، ولكني لم أتبين الكلام.

وثَمَّ مركب خشبيّ صغير يشقّ المياه القاتمة القديمة، دون صوت، من غير شراع، كأنما ينساب وحده بلا راكب ولا سكّان.

وعلى الشط الآخر خُصّ معمول من البوص وأعواد الذُرة الجافّة وحطب القطن اليابس، فتحةُ الباب تبدو لنا سوداء، في عكس نور الغسق الدُرِّيّ الذي يؤوب بسرعةٍ إلى دُكنة المساء.

قلت هل مرّت بالفعل آلاف السنين؟

أمازلنا في أحراش إيزيس؟

امتدادات شاسعة من مياه المستنقعات، قارب وحيد، تحرسه العقارب، حُور مازال طفلاً ضائعاً موعوداً بالمجد والعذاب؟ وأنتَ ألن تفرغ أبداً من إقامة مشابهات لا معنى لها؟

المعدّية، في آخر رحلات اليوم، تعبر الغسق بحثاً عن شمس الظلام، هل تجدها أبداً؟

نظرتْ إليّ رحمة، نظرة طويلة في حِسّي، نصفَ دقيقة ربما، بينما كانت لندة تثرثر مع عمي فانوس بصوتٍ منخفض مستمر، كأنما هي، على غير عادتها، في هيبةٍ من شيءٍ ما.

ياما ناديت من أَساي، في وحدتي يا حبيبي، ما ردّ إلا صَدايَ، فضلت أنادي، في كل وادي، ويطول نِدايَ، شجْوُ الكهل ونداءات

الأشـواق القديمـة ظِلُّ المُغنّي الخفي وعـزْف الليرا في حمايـة الثعـابـين والصقـور والغربـان وقطعـان البقر، في صحـوها وهجـوعهـا سيّـان، أحراشُ الغار وأدغال الحَلْفا الوحشية البـازغة من سَبَـخ الملح وطراوة وحرافة الجُعْضيض بين سيقان الملوخيّة البريّـة المُزهْـرة، وأسراب الوز الأبيض المنسـاب على الـترعـة، وراء وزّة ستي أمـاليـا ـ كـأنها بجعـة سوداء ـ التي كنا نعزّها جداً ونناديها باسمهـا «نعيمة» فتجيب بصيحـةِ العِرفان، كانت تأتيني النيمفيّة الحوريّـة دافْني سيريني عـروس النيل، بعد أن تقود السرب من الترعة إلى طرقات البلد وحـواريها، ثم تعـود إلى البيت، وحدها، عند كل غروب، فتأكـل من يدي حبـوب الذرة أو الفول أو ما يفتح به الله علينا من قوت.

للمرة الثانية نصف دقيقة.

ما أعظم وما أكثر ما يحدث ـ وما يمكن أن يحدث ـ في نصف دقيقة.

وبعد، ألم يَكْفِ؟

وبعد، أيها الـوادي العميق حيث يجثم كهفُ الظلام ويبسم معبدُ الأحـلام، حيث يمتزج النـور بالحلكـة، وترتـطم الأمواج الصغـيرة في عمق الهوة المظلمة، يرتفـع أزيز المـاء كأنـه يغلي، حيث تتغنى الـوردة الغضّة على فَنَنِها الهافي فيقبّلها النسيم بحنان ويُسبـغ عليها النـور حباً وهـوىً، يحتضنها الأرج العبِق المنبعث من غـوْرِ ذاتهـا، وبعـد، أيهـا الوادي، إلام المآل وأيّان المصير؟ نظرة طويلة كالأبد، نصف دقيقـة، ربما، شعاع يخطر ويختفي في ظلامٍ أبيد.

وفي ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠ قالت «البلاغ» إنه عُثِر في الرَيَّـاح البحيري بالقرب من كوم بوبيللو على جثة امـرأة تبينّ أنها تُـدعى خضرة محمود

من أهالي الطرّانة مركز كفر داود، وكانت الجثة عارية ومحلوقة الشعر وبها كسر في الجمجمة من ضربة فأس. وقد تعرّف الأهالي عليها وقرروا بأنها كانت «غندورة» ولكن لم يُعرف عنها سوء السيرة وأنها تركت خمسة أولاد صغار وتحوم الشبهات حول زوجها المدعو حجازي عوضين وهو هارب وتجري التحريات بغية القبض عليه وتباشر النيابة العمومية التحقيق.

ويومها كنا على وشك السفر راجعين إلى الاسكندرية، أنا وأختي عايدة التي ماتت بالتيفود بعدها بسنة، وأختي هناء التي هربت بعد ذلك بسنين وتزوجت مسلماً لا نعرفه واختفى عنّي كلُّ أثر لها، وكانت رياح باردة، قارسة وجافة، تمسح الأزقة المتلوية المتربة، تصفر في الجرن الذي انحسرت عنه المياه وإن ظل موحلاً كثيف الطين. وفي السماء غيوم رمادية بطيئة، وهناك في العظام برد غير مشبَع وغير بليل.

لم نذهب بعد ذلك للطرّانة، أنا وأخواتي، لأننا، بعد ضرب البياصة في باب سِدْرة بالطوربيد الكبير وتهدُّم الورديان والميدان بني كوم الناضورة وشارع السبع بنات، هاجرنا إلى أخميم في صيف ١٩٤١ ثم إلى دمنهور طَوال ١٩٤٢.

قلت: الغَرَق شهادة.

فماذا صار من أمر رحمة ولندة؟

أمازالتا على قيد الحياة، في بلدةٍ ريفية أصبحت الآن مزحومة مكتظة بضجيج التلفزيون والفيديو، أعرف أنهما غادرتا الطرّانة من

زمان، أتراهما عانستين مقدّدتين جافّتين تكرران مشهد خالتي روزة وخالتي سالومة؟ أم تراهما كهلتين متهدّمتين لهما أولاد وأحفاد، صوتهما ثاقب مشروخ، مُقعدةً الواحدةُ منهما من المرض أم نشطة متوفِّزة بحركة العجائز التي لا تهمد ولا تستكين؟ وكيف تبدوان الآن، مغضّنتين ممتلئتين باللحم المتهدّل المدعوك؟ أم ناحلتينْ ممصوصتين تستندان إلى عكاكيز؟ أم هما تحت التراب، مآلنا جميعاً في نهاية الأمر، أليس كذلك؟ ذلك أمر ـ وإن كنّا ننساه ـ محفوظ مشهور، والتفجّع المأثور.

طوارق تقرع القلب.

وبغضّ النظر عن أية رومانسية محتملة أو ممكنة، عن أية نوستالجيا مقبولة أو مرفوضة، ستظل رحمة جميلة ورقيقة إلى الأبد، وستظل لندة غضّة ومتمردة الجسد.

أما خضرة الشهيدة فقد كنت خبّات جسدها في القلب، يُشعل لي سِكّة الشهوات، أبداً، بنارٍ متجددة لا تنطفىء والروح مشتتة بالشوق العقيم.

إلامَ آلت نصف دقيقة؟ إلام آل نصف قرن من الزمن؟
هل يمّحِي أثر الشهوة؟
هل يمّحِي أثر المحبة؟

٣ ـ حميدة البرصا

ساعة الظهر في الطرّانة هي ساعة الوحشة.
يقولون إن العفاريت تطلع في عزّ الظهر.

أما نحن، عيال الطرّانة، الصبيان والبنات، فإننا لا نخشى طلوع العفاريت بل لعلنا نستحثّها، ونرجو، بشقاوة مفهومة ومطلوبة، أن نستفزّها ونرغمها ـ حتى ـ على الطلوع، بالتحدي الصبياني المألوف. طَبْ اطلعوا لنا كده.. ما تطلعوا بَجَى.. آدي الجمل وآدي الجمّال..!

فهل كنا حقاً بهذه الشجاعة، والعفرتة، في ليل الطرّانة العتيم؟

في ساعة الظهر كان لقاء الخليل ابراهيم مع الملاكيْن ووعد الرب بأن يولَد لسارة ابنٌ بِكر في شيخوختها.

في ساعة الظهر التقى يسوع المسيح، في نوره الصاعق، بشاؤول الطرسوسيّ الذي أصبح رسول المسيحية إلى روما المجيدة، قيصر كنيستها وواضع شريعتها.

في ساعة الظهر أيضاً كان لقاء يسوع بالمرأة السامرية عند بئر الماء. لا يعطش أبداً من شرب من هذا الماء. أيّان مِني رِيّ العطش؟

في ساعة الظهر رُفع على الصليب ودُقت المسامير على الخشبة من خلال عظام يديه، من أجل خلاص البشر. أيّان الخلاص؟

وفي ساعة الظهر كان المعلم شنودة البقال عائداً إلى بيته الذي

يطل على الجُرن الوسيع في سُرّة البلدة، تُظلّه شجرة جميز عريقة عريضة الجذع.

قال إنه رأى في عرض النيل شيئاً طافياً. كانت منتفخة البطن، مقلوبة على وجهها، افترشت الماءَ طرحتها وقد اسودَّ لونها، نصف مغمورة تحت سطح الموج، وتتقلّب، قال إنه رأى ما يشبه نجمة ذهبية تومض في الشمس، مشعّة ونفاذة، قال ثم دفعها التيار المُدوِّم المضطرب إلى ناحية كفر داود، النجمة الذهبية كانت تصاحب ذلك الشيء السابح في التيار نحو الشمال، قال حلفت برب المجد أنها كانت حميدة البرصا، قال اللهم اخز الشيطان، وصَلُبَ، ومجَّدَ المسيح. والنجمة الذهبية تتألّق، تزداد سطوعاً في عز الظهر في قلب السماء. قال إنّه لم يكن يريد، حتى، أن يقول. هبّت عليه لفحة من نتن الجثة الذي لا مثيل لدسامته وقوة ضربته، قال لم أستطع أن أتحرك، حتى اختفت.

هـأنذا في المنتصف؛ إلى جانب مني، هناك الشطر البارد المظلم المتحجّر القاسي؛ وإلى الجانب الآخر، الشطر الملتهب المنصهر المتألق. اللهم اجعلني وقوداً للشطر المحترق، اللهم اجعلني هشيماً للنصف المشتعل. اللهب، اللهب، أريد بقاءً ساطعاً في اللهب.

لا.

بل أريد الظلام. يفتنني. أريد نشواته وخفاءه. أحب مخاتلته وخداعه. كأنما بي لهفة لمفازِعِه، وهواجسه، وتوجساته، أحلامه وكوابيسه الرازحة.

الحارة السدّ التي توصل من بيت خالتي روزة وخالتي سالومة، إلى بيت عمي أرسانيوس الملاصق لبيتنا، تحت النبقة الضخمة العتيقة.

مقفلة مهجورة، في عزّ الظهر.

حَرّ أغسطس يملؤها بسكونٍ وثقل.

ليس ثم صوت في هذه الظهيرة الخانقة إلا أزيز ذبابة كبيرة زرقاء، عنيدة، مستميتة، وصوت تهشّم ورق الشجر الجاف المصفرّ تحت قدميّ.

لماذا أجد نفسي في هذا المعبر المغلق الذي لا ينتهي إلى مآل؟ لا يجتاز إلى شيء؟ في هذه الساعة النصفية السخنة التي لا تنتهي، والتراب.

هذه المحرقة، هذا الانصهار، على باب الجحيم الزائف المرسوم على حائط مصمت، لا يفتح - حتى - على هاوية النار بل يحترق فقط بلظاها، دون نفاذٍ إليها ولا تَرَدٍّ فيها.

الصمت المُحيق يقطعه فجأة نباحُ كلب غير مرئيّ، صوت طويل من غير أمل.

كأنه خائف.

كأنه معذّب بالحرّ، والوحشة.

كيف يمكن أن تُغْمَر الوحشة في حُمَّا الجسد؟

هل هذا ينفيها، يلغيها، يغرقها؟

أبداً؟

أين حرّ الظهر اللاهب من نور عينيك الأخضر الساري في الروح بلا انتهاء؟

يا حبيبتي - هل أنت قد وُجدتِ قط؟ - أين أنتِ الآن؟ أم أين أنا؟ هل حقاً ضربت أيدي الليالي بيننا؟ أم أن حبنا - حبي - أقوى من أمواج الليالي؟

يا لضرب الرومانسية الساذجة التي لا برء منها في صميم عظامي.

رأيت حميدة البرصا - فجأة - في آخر الحارة، تأتي إليّ - تعرج قليلاً في مشيتها البطيئة.

من أين أتت؟ الحارة عندها سدّ. من أين خرجتْ إذن؟

كنت أراها أحياناً في بيت عمي أرسانيوس: خضرة قد نادتها إليها، هدّأت من روعها، ربتت على كتفها برفق - دون أن تقترب منها جداً - وأعطتها شيئاً من طبيخ - مما بقي بعد الغداء - ملوخيّة أو بامية أو رِجْلَه، وقطعة لحم عنيدة مشتبكة بالعظم والشَغَت، في طبق صفيح غويط، مخصوص، لا نأكل فيه، ورغيف بتّاوْ جافّ أو رغيفين.

سمعت خضرة تدعوها بحنان: خُدِي كُلِي ياخْتي، خُدِي بالهَنَا والشفا، بالمداوة ياخْتي. يوه، ياترى ياهلترى أكلتِ إمتى ياغْنيِّ.

وسمعت ردّاً تداغمت فيه الأصوات، كأنما تموء كحيوان، كأنما الحنوّ ضَرْبَة، كأنما فقدتْ القدرة على الكلام من زمان. لكنه كان صوتاً إنسانياً جداً، ليس حيواناً ذلك الذي يموء من العرفان والجوع.

اقشعرّ جسدي. ونسيته على الفور.

تنتحي حميدة البرصا جنب الباب من جُوّه، بمنأى عن كلاب الحارة، وقطط القرية النهمة، وبأصابعها متآكلة الأطراف تغمس البتّاوْ في الطبيخ، وتدفعه بسرعة ولهفة إلى الفم المشقوق، شفتاها المتقرّحتان المتورّمتان، لا تكادان تنضمّان على اللقمة التي أراها تبتلعها دون مضغ تقريباً، ترتفع لها تفاحة آدم الواضحة في عنقها، طرحتها السوداء قد تهدلت حوله، وعيناها تدوران في شغف الجوع، ولذة الإشباع، والخوف من المفاجأة.

متى أكلتْ آخر مرة؟ وماذا أكلتْ؟

أَحذفُ وجودَها وأنفيه عني.

كما كان أهل الطرّانة كلهم يلغون حضورها، لا يرونها، أصلاً، ليست هناك.

البُقَع الفاتحة في جلد وجهها ويديها، أنصاف أصابعها البتراء الغليظة، العُقَد الباهتة المتورّمة في خديّها وشفتيها. كانت هي التي تلغيني، تحذف صباي، وتقول لي من غير صوت: لا.

لم تكن تخرج من مأواها. مَنْ يعرف أين تبيت؟ إلام تأوي؟ في زريبة مَنْ؟ تحت أرجل جاموسة مَنْ؟

على أول المساء تتلصص منسربة، ملتصقة بالحيطان المبنية من الطوب النيء والقش وأعواد الذرة الجافّة، تخفي وجهها بطرحتها السوداء التي تبدو معفرة بالتراب، مغبرة رمادية الأطراف.

خضرة قالت إن حميدة البرصا ـ ياوِلْدَاه ـ لم تكن تغسل طَرْحتها أو

هِذْمتها إلا بعد غروب الشمس، تختار مَنْزَلاً وعـراً ومتحدّراً للترعـة، بعيداً عن المساقي جاريةِ المياه التي تُملأ منهـا البلاليص أو تَنزل إليها الطيور وتغتسل فيها البقر والجاموس، بعيداً عن مواقع غسيـل الهدوم والمـواعين التي تختـارها وتكـرّسها بنـات الطرّانـة ونسوانها، يـثرثرن ويضحكن ويتغامزن على الرايـح والجايّ، ويشتغلن بجـدّ، أفخاذهن سمـراء مكشوفـة ولامعـة من نـدى المـاء المنتـثر، عـاريـة دون حسٍ بالذنب.

بعد عودتنا من وادي النطرون، وانتهائنا من تـرحيلة إعادة رصف شقّة من الطريق الصحراوي ـ وقد أخذ خالي ناثان عهدتها من المقـاول الكبير الذي لم أعرف اسمه قطّ ـ كنّـا أمام دكـانة المعلّم شنـودة البقّال، في أول الليـل. أنـا وخـالي نـاثـان، وأسعـد أفنـدي ابن أخت عمي سلوانس الصراف. أخرج لنا شنـودة مقعدين خشب مـدورين، دون ظهر، عملهما له خالي سوريال عندما جاء إلى هنا أوّل الصيف، وجلس هو على حَجَرة بيضاء كبيرة، أما كرسي الخيزران فقد عزم وحلف على خالي ناثان ليأخذه.

كنا نواجه الدكان، في الحارة الضيقـة، ووراءنا حـائط سدّ طـويل متلوٍ ليس فيه منفذ، حائط بيت الشيخ علوان، صاحب كُتّاب القرية وإمـام مسجدهـا ومقرئهـا. وكان يحجـز أهل بيتـه عن عيون القـريـة ويمنعهم زيارة أهلها، نصارى ومسلمين على السواء، يحـوّط على كنـز هشٍ سريع الاشتعال.

كان بيته في الجانب البَحَري من الـطرّانة الـذي يسكنه كـل أقباط البلد تقريباً، فيما عدا بيتين أو ثلاثة.

أما الكنيسة فقد كانت في الجانب القِبْلي، في وسط بيوت المسلمين وأمام السراية.

الجرن المدور الفسيح يربط بين شقَّيْ البلد.

جامع القرية كان أيضاً في طرفها القِبْلي، يطلّ على الغيطان من ناحية، وعلى النيل من ناحية أخرى، والطلمبة الوحيدة في القرية كانت في حوش الجامع، تمدّ الميضة بمائها الرائق الذي كان يصعب قليلاً ترغيته بالصابون.

وكنتَ تأتي إلى الجامع بعد أن تترك دوّار الشيخ عيسى وتعريشة الخشب التي تتعلق بها العنبة العجفاء الناحلة على مصطبته العريضة، وبعد أن تدور حول سور السراية الكبيرة المرشوق بالزجاج المكسور وشقافة القُلَل والزِلَع، طالعاً من ماء النيل مباشرة من الناحية الأخرى، والسراية لا يقيم فيها إلا الخواجا أبو أنيس - البقية الباقية من عائلة داود - وخادمه العجوز حمدان. هو أيضاً لا يزور ولا يُلمّ به أحد، لا يفتح الباب الخشبيّ العريض لأحد، بعد أن جاء ابنه الذي كان طالباً بمدرسة الطب العليا في القصر العيني في المسامحة الصيفية التي فاتت، وجاء معه برقّاصة من مصر قال إنها زميلته في الكلّية، فلما عاد أبو أنيس من دمنهور، طرد ابنه من السراية، واستبقى البنت، وأطلق أنيس على نفسه الرصاص؛ وظلت السراية خاوية على عروشها. لم يكن الشيخ يسمع في عزلته إلا صوت طلقة نار.

وبعد السراية تأتي إلى قبّة الشيخ أبو طاقيّة. خضراء، منخفضة، وحدها على طرف جسر النيل المرتفع، ولها شبّاك حديديّ نرى منه

النعش المكسوّ بحرير أخضر ناصل. الشيخ علوان يوقد المبخرة في صلاة الجمعة، ويتبرّك به الناس.

أما طرف القرية البَحَري فقد كان آخر بيت فيه، يطلّ على الغيطان، جنب الساقية القديمة المهجورة، هو بيت الست حنينة. تعيش فيه وحدها، بعد أن مات عنها زوجها عمي ميساك البنهاوي، لا يعرف لها أحدٌ أصلاً ولا فصلاً، سيرتها على كل لسان، وكلها غَزّ وتنخيس.

عزم عليّ المعلم شنودة بكأس عَرَقي، سقسقه بالماء فابيضّ وكثُف قوامه، زيتياً، كاللبن الحليب، وفاحت منه رائحة الينسون النفاذة، وحثني خالي ناثان أن آخذه، من غير كسوف خُد يابني صَهْلِل ياما عمّك شنودة جَرْبع خمسينيّات كونياك أُوتَار معتبرَ من جدّك وياما أكل زَفَر مزغّط من إيد ستّك يالله ياعم حد واخد منها حاجة إن شا الله ماحدّ حوّش إلى آخره إلى آخره. وضحك أسعد أفندي بصفاء وصعد العَرَقي قليلاً ـ كالعادة ـ إلى رأسي وأحدّ بصري وتيقظ حسي وتوتر جسدي.

عندما خرج إلينا من الغور، وفي يده رُبْع العَرَقي، كان لخطواته الثقيلة صدى في الفراغ، وسط الدكان.

الرفوف حوله، في عتمة خفيفة، عليها علب الدخان والسجاير معدن كوتاريللي بالقاروصة، وبالعلبة، وفَرْط، وشاي التموين في باكوات ورق مسطحة صَفْطَانَه صغيرة حمراء، وعلب أخرى مستطيلة ومكعّبة وطريّة الشكل، وعل الرف العلوي أقماع السكّر الكاملة في

غلافها الورق الأزرق، أما الكَسْر منها فجنب البنك يضربها المعلم شنودة بسنجة الوِقّة المضلّعة فتنبثق منها شرارات حمراء متطايرة من قوة صدمة الحديد بصلابة السكر ناصع البياض. تحتها باكوات الملح في عبوات ورق رمادي مرسوم عليه أبو الهول. جنبها زجاجات الزيت الفرنساوي تراكَمَ التراب من الخارج على دَسَم زجاجها، وأقراص اللوف الخشن الملتفّ على نفسه. ومن الناحية الأخرى مكعّبات صابون النابلسي فاروق الصفراء الجافة اسودّتْ قليلاً من الأضلاع الخارجية. أما صفائح الجاز فكانت بجانب الباب، بعيد متناولها ورائحتها عن سائر البضاعة. لم تكن الرفوف الخشب الخام عامرة. لمبة جاز نمرة خمسة مِدَخْنِسة في خواء وسط الدكان. على الأرض المتربة أكوام عالية من قوالح الذرة وشوالات الغلّة والشعير والحلبة، والعيش البتّاو الناشف في مقطف كبير. صفوف البيض الطازة مرصوصة في قفص معمول من جريد النخيل، هذه عُمْلة أهل البلدة، بنك البلدة، ياما قايضت كوز الجاز - بالكوبون - بكوز الذرة، لستي أماليا، وحُقّ الدخان أبو غزالة بثلاث بيضات لجدي ساويرس. وعندما يخرج المعلم شنودة من الدكّانة يرفع البنك الخشب ويتركه يسقط على دعامتيه بخبطة قوية.

قَدَّرْتَ لِي سبيلاً على الأرض، ليتني أتألق في جوهرك.

يا أم الإله، يا ذات الأسماء التي لا تُحصى، يا موئلي، لا أعرفك أيتها الغريبة، أُنكرك. أنتِ فِيَّ، كلَّ لحظة. تعاساتي لا نهاية لها يا سيدة القُرَى المولودة ناضجةً كاملة في القوقعة نيمفيّة البحر الكبير إيزه عشتار مريم رامة اشفعي لي، بحقّ الأنّات التي لا يُنْطق بها. دفنتُ

وجهي في ظلامكِ الذي يسطع بنـورٍ أكثر تـألقاً من كـل أنوار الأرض والسماء.

نور معموديّتي الثـانية مـوسيقى الأمواج تصـدر عن جدران المقـبرة تحت شجرة الدُوم، القردُ القدسيّ لا أراه أعـرف أنه جـاثم بلا حـراك بين سَعَفِها الداثري المجدول، صلاةُ تطهير للآثام الثقيلة ماضيةً وآتيـة، بزوغُ القمر الوليد.

وفي حموة العَرَقي الخفيفـة كان حضـورها الـذي يمر أمـامنا، قـوياً وكأنّه تهديد، تحت حائط الشيخ علوان الرماديّ القاتم، في طراوة غبشة أوّل الليل، تميل على رِجْلها وهي تنسرب حافية، قدماها المتربتان نصفـ أصابعهما قد تآكل وسقط، غلظت جذوعها الباقية وتكوّرت، عينـاها وحـدهما نقيّتـان متألقتـان بنارٍ داخليـة ليس فيهـا غضب ولا مـرارة، أمواج شعرها الناعم المنسـدل، مسرحاً ممسـداً بعنايـة، تحت الطرحـة المغبرة باهتة السواد، مفروشة على ظهرها.

طريّاً ودافئـاً، مع أنـه مطمـور في الرمـل منذ أكـثر من ألف عام. المجد لك يا يسوع قال المعلم شنودة، كنت هناك وأنا صغير، مع أبي الله يرحمه ويقدّس روحه، عندما رفعوه، قال نضح الجثمان فجأة بالدم وسال الدم على الأكفان الملفوفة حوله، كتّان أصفر كأنه الحرير، وكأن جِراح الاستشهاد مفتوحة مازالت، تنزف، قال، تحلّلتْ رقائق الزنك التي تحيط بصنـدوقـه، وتفتّت خشب الصنـدوق بمجـرد أن رُفـع في الهـواء، واستحال مسحـوقاً من رمـاد باهت، ولكن بقيت عـلامـات الصليب المرسومـة على لفـائف الكتّـان لم يمسسهـا البـلى ولا أصـاب فتـائلها عـطب، قال، كـل الدفـائن حولـه سقـطتْ عِـظاماً مفككـة

متناثرة، وبقي جثمان الشهيد سليماً يضيء وجههُ المكشوف بنور ليس من هذه الأرض، كأن الروح لم تفارقه بعد، قال، رأيته عندما أخرجوه، وقبل أن يودعوه صندوقه الجديد المعمول من خشب الجوز الثمين، سِرّاً، دون أن تعرف الحكومة، صلّوا عليه صلاة الشهيد، مساء، على نور الشمع الكبير، وكانت الكنيسة محتشدة بالناس، لا يندّ عنهم صوت، والقداس السرِي في عنفوان تقلّبه، رأيته، قال، قويٌّ البنيان مازال، ممتلئاً بالنعمة، مهيباً، على قسماته آثار الآلام التي لا توصف، تجاوَزَها وعبر إلى المسيح، صَفَتْ ملامحه، وراقت، نال إكليل الشهادة، قال.

عثروا تحت بوبيللو على جثمان القديس بساده، محتفظاً بكيانه، قال.

قلت لكِ: أحتاجُ إلى الشجر، والناس، والسماء ذات الموج الساجي، والنوارس المنطلقة الصارخة على غَمْر البحر، لكي أعرف الحرية، لكي أخلص من ثقل الدهور بكل مجده وأكاليله.

ليست حرّيتي محبوسة داخليّة مقطوعة عن جسد العالم، عن تجلّيات جسد الله. آخذ قرباني في نور الشمس الفسيح في سطوع ليلٍ لانهائيّ الأفق.

لا. لم أقل لكِ ذلك

لم أقله

لا أقوله

ألا ينتهي القِيل والقال؟ عددتُ صياحَ الديك، مرتين، فقط أظلُّ أنتظر الثالثة.

هـل أَبحثُ عن جسد العـالم، عن تجلّيات جسـد الله، في جسدك وعجينته؟

أم أَبحثُ عن جســدك تحت بَشَرة السـماء النـاعمـة، في عَضَــل الشجر، وفي زهوره الصفراء الساقطة في تراب الطريق؟

قـال كان جسـده أبيض اللون، نضـراً، قـال، وأبـونـا أنـدراوس سكب عليه قنينة عطر جديدة غالية، اِسْوَدَّ الجسـد على الفـور، كله، ولكنـه ظل عـلى لدونـةِ أعضائـه وطراوتهـا. وبقيت في الوجـه المُسْوَدّ المنير، آثارُ كدمات قاتمة، جـرّوه على الأرض أثنـاء تعذيبـه، جلدوه، وجذبوه على وجهه من فوق سلّم قصر الوالي وأركبوه بالمقلوب، داميـاً مرضوضاً، على جاموسة، وطافوا به شوارع المدينة.

عصبوا عينيه طوال المدة في طُرة، في أبو زعبـل، وضعوا الأسـلاك المكهربة في ذَكَره وحول خصيتيه وعلى حلمتيْ صـدره، كسروا أسنانـه بلكمات قوية، أوقفوه في الماء البارد عارياً، وعلّقوه من قدميه حتى فقد الوعي، وقالوا اعترف.. اعترف.

في بكين وبرلين، في روما وقرطاجنة، في لورنـزو ماركيـز وبيونيس أيريس، في دمشق وبغداد، في سيول وهانوي، كلّهم سواء.

الكدمات والتشويهات قد نعمت بالشهادة وكأنها وَسَـامة مُضَـافة، كانت الذراعـان منزوعتـين عن عظام الكتفـين، وآثار القـطران المغليّ المسكوب على رأسه تاج من الشوك. حروق في الجسم على هيئة سيور غير منتظمـة، والكلاّبـات الحديـد غُرست في لحمـه وعظمـه غرسـاً، تَرَكتْ فتحات غائرة، ثقوب هلب مَرْكب حـادّ الأسنان، في الصـدر، ثلاثة أقانيم العذاب والاستشهاد.

الشهداء بلا اسم ولا عدد. بلا مجد ولا نُصُب.
صفوفهم تتوالى، تسقط، ترتفع بلا انقطاع، بلا انقطاع.

في وحدتي ـ وأنا مع نفسي ـ أجد نفسي دائماً تُسْدِي لك الحنانَ والشوق، من بعيد، من غير زمن، وأنا أعرف أن هذا الحنان لن يصلك أبداً. أعرف أنه يسقط سُدى مهدراً في وحشة الغربة المضروبة بيننا. هل الحب، والشوق، دائماً يضيع سُدى؟ والعذاب؟ لا أعرف. هل ترسلين إليَّ ـ أنتِ ـ مثل هذا الحب، هذا الشوق هذا الحنوّ؟ لا يصلني منك شيء إلا الصمت. ولا منهم، ولا من أحد.

هواجس اللامبالاة القديمة، وإرادة القطع، والخلوص.
الخلوص من الاضطراب والتشكيك والتشعّث.

ورغبة ـ لك الحقّ فيها؟ ـ في التطهّر من المرارة التي تتكثّف من صمتي وانقطاعي الذي هو علاقتنا دائماً، عندما لا نكون معاً، وأحياناً عندما نكون معاً، أيضاً.

هل يمكن تنقية المرارة بأقراص يبيعها الصيدلي، كحبّات الاسبرين؟

حريتي ليست فقط داخلية.

وبصوته المبحوح الخشن الذي يخرج عبر بلغم المعسّل وكُريات الأفيون الدقيقة المعجونة، مدفونة تحت اللسان، وهو يحدّق بقِصَر نظرٍ واضح، عبر غبشة أول الليل، بعينيه الجاحظتين قليلاً. وجهه، مدوراً لحياً تنقشه خروم رفيعة كنَغْز الإبَر من أثر جدري قديم، يمتدّ، في حركةِ تحديقِه النظر إلى الأمام، على عنقٍ متين قصير، كان المعلم

شنـودة يحكي ـ دون حرج ـ حكـاية كـريمة بنت الشيـخ علوان، جاره الذي لا يفتح بابه لأحد.

كانت كريمة تلمّ صفحات قديمة من «الأهرام» التي بقرأها أبوهـا، بايتة، بعد أن يفرغ منها عمدتنـا عباس عيسـوي، وبعد أن يـأخذهـا أهل بيته، يساعدون بها على وَقِيد الكوانين والفرن، ثم يـرمونها عـلى جنب، تحملها حميدة البرصا إلى كريمة. وحدها حميـدة البرصـا تدخـل البيـوت دون إذن، ما كـان لأحدٍ أن يسـألها أو يقـترب منها. الـبرَص كـان حصنها الـواقي المنيع، سـورٌ حولهـا يحيطهـا بأمـانٍ خـاصٍ بهـا وحدها. وكريمة تقـطع بالمقص كلمـة «محمد» بـالبنط الكبير والصغـير سـواء، وتختار قصـاصات من كتـابٍ بالصـور عنوانـه «رسائـل غـرام جديدة» للأستاذ سليم عبد الأحد، تسوّيها وتلصقها، بصمغ تصنعـه من قشر شجـرة السنط في حوش بيتهم، عـلى ورق كـراريس كنـظام وزارة المعارف العمومية، وتبعثها، مع حميدة البرصا، مـراسيل غـرام إلى الـواد محمد ابن شيـخ البلد، تدسهـا في نسـخٍ قـديمـة منـزوعـة الغلاف، اصفرَّ ورقها وبليت أركانه، من روايات الجيـب أو روايـات المطبعة العصريـة لصاحبهـا إلياس أنـطون إلياس من تـرجمة المـرحوم طانيوس عبده. قال تعلمتْ الكتابة، قال تعلمتْ الكتابة والقِراية، في المدرسة الأولية في كفر داود عندما كانت عند أمها التي طلّقها الشيـخ علوان بعد أن شاعت عنها وذاعت حكايات ـ غير مؤكـدة مع ذلـك ـ عن ذهابها في المغارب ـ من زمان ـ وراء الطاحونة وما يحدث هناك في دِرا الحلفا والهيش، بين النسوان وبين ولاد البلد العايقين الفسدانين.

غارت الأرض الطينية تحت قدميـه، انزلقت رجـلاه في وحل لـينً

مرحِّب طريّ الملمس يجذبه بتوقٍ لا يُردّ. هل كانت المياه أمواج غضب أم رقرقات اختناق الحلم طعم الملح في عينيه المفتوحتين ضرباتها رقيقة لكن قاسية صدره يدرّ بالحنو الموجع وهي بين يديه يدفع برأسها في العنصر الغريب غير المُعادي وتطاوعه. ارتفعت المياه دون أن يتطاير لها رشاش حتى وصلت إلى ركبتيه يضغط على العظم المدّور المضلّع النحيل وجهها الشائه المضروب قناع نحاس سطحه حارّ في البلل انحسرت كل عوراته عنه فجأة في هذا التموّج الخفيف الريش الأسود الحريريّ يغطي يديه ويثيره فينتصب فجأة ولكنه لا يقذف طرحتها السوداء مفروشة في الماء تطفو تحت سقف الموجِ بقليل لا ترتفع إلى سطحه ولا تغوص لها حياة خاصة تتقلّب استكنْتْ بين ذراعيه وهي ماتزال تتفلّت وتموء قليلاً مواءها المحِبّ الشاكي العارف بالجميل أيضعها تحت الماء بيديه العاريتين؟ قلبه يصرخ صرخة واحدة بإزاء الجسد المنساب ويشوخ في عمقٍ ساكن مظلم لحظة الاندماج الحميم مع هذا الكيان الناعم الذي لا اسم له.

سِتّ الخَماسين بِتّ غيوم الطرّانة الشتويّة سُحُبُها القائمة تلقي ظلالاً متموّجة تعابين الماء وَرْدتِي السوداء شوكتها في شفتِي جرحها مفتوح لا يرمّ قلت لن أضمّده أدع الدم ينزّ حتّى مجيء الصبح الذي لا إيذان له بمجيء جارية حابي المبذولة طوعاً أو عسراً المومس التي لم يمسسها بشر خصيانكِ يبخّرونك بالصندل والعنبر والطيوب من وراء حِجارة بوبيللو عبق البخور الحرّيف فيه نتن جذّاب يطوّق عنقكِ تطير جبال البخور ودخان المحارق سُحُباً مهدَرة قلت حِجارة فوق حجارة؟ إلى متى تظل ترتفع الأنقاض؟ يمامة مقصوصة الجناح ومحلّقة

لا تسقط الكبش النطّاح يطاردكِ بلا هوادة يضربكِ بقرنين لا تنكسر حفافهما المدبّبة الجاموسة تمتلىء ضروعها باللبن المشكوك فيه قوامكِ الإلهيّ مضروب بالعَوَار صفحة الماء تطفو عليها أوراق البطيخ العريضة أعواد الذرة الناشفة تنْقلب وتدور في حلقات حاشيتكِ غير المنظورة أوقات النعماء والنكبات كل الرباطات مفكوكة وكل الأنشوطات محلولة العُقَد نوّار البرتقال فيه بُشرى لَعِب الغرام على المصاطب المظلمة نداء نيران الحطب في الأفران والكوانين.

من بعيد تتردد في الأفق صفّارة الاكسبريس الطوّالي كأنما تمتصّ الغيطان قوّتها ويقول جدي ساويرس دون أن يخطىء قولها ولا مرّة: الساعة حداشر ونُص ياوْلاد كمان ساعة كده عريان أفندي البوسطجي حيوصل حَدَانا ويطلب شربة مَيّة من البنت خضرة.

رأيت حميدة البرصا تأتي إليّ، في عِزّ الظهر. من أين أتتْ؟ الحارة عندها سَدّ مقفلة لا منفذ لها. من أين خرجتْ فجأة؟

اتجهتْ إليّ مباشرة، بلا حِوَل. عيناها المتقدتان في عينيّ مباشرة. أعرفها كما يعرف المرء ذات نفسه.

وحدنا، ليس في العالم إلا أنا وهي، في ساعة الظهر الموحشة الصامتة.

التقى جسمانا بقوةِ صدمة.

احتضنتُها بلهفة، بكل ما في روحي من نجدة. لا أرى أنفها الأفطس المتآكل، وفمها المتورم باهت البياض. طويتها في حضني، تغمرني رائحتها النفّاذة الحرّيفة. كنا شيئاً واحداً، جسماً لا شقّ فيه، لحظةَ بذْل نهائيٍّ وتماسكٍ لا ينفكّ.

نفرتْ مني في الأوّل، خطفةَ برق. ثم أقبلتْ. رجفة الجسم فقط في إيماءةِ نأيٍ لا تكاد تُحَس، ورعشة الالتصاق. تشبّثتْ. كنت قد اندفعت إليها في طلْقةِ حافزٍ لا يقاوَم ثم تماسكتُ وتجلدتْ نسيتُ كل شيء.

قبلة تماسٍّ أقصى لا انفصال له. الشفتان المشقوقتان المتضامتان بصعوبة جِلدهما الجافّ أحسه عذباً في عمليةِ صَلْبٍ لا ينتهي.

لم تُغمض عينيها المشتعلتين بنار صفراء مخضرّة. ليس فيهما مرارة ولا غضب ولا طلب للنجدة. وليس فيهما انتصار. أرى عمق نفسي في هاتين العينين.

دهشت ـ كأنني في غيبوبةٍ من نوع ما ـ رأيت في أذنيها الدقيقتين قرطاً صغيراً، نجمة ذهبية وَمَضَتْ في الشمس ثم خَبَت. قامتها في حضني، مفاجئة طازجة مطواعاً، أحسست أنها لا تلبس شيئاً تحت الجلاّبية السوداء الباهتة، لحمها غضّ طريّ وبِكر، شعرت بهما نهدين قويين على صدري، صلبين تقريباً. وعرفت، دفعة واحدة، قطيعةً كاملةً مع العالم، توحداً كاملاً بهذا الجسم الحارّ.

ثم انفصلنا، دون صوت.

قلتُ القناع. أي إثم يعاقب عليه المرء إذ يُفرَض عليه قناع الجسم.

القناع مخزٍ، حِجارة منقوضة.

قالت: قامتك أطول منهم جميعاً.

قالت؛ لا لم تكن هي التي قالت: كل هذه الرومانتيكية عندك؟ أكبر منك بكثير.

كأن القناع الشائه لم يكن قط.

قلتُ: ذلك لا يعني شيئاً، أيَّ شيء. لا يُثبت ولا ينفي شيئاً.

قلتُ: هل أصبحتِ في عداد الآلهة؟

لن أقدم إذن قرباني. أنبيني.

في كلِ عام يرفع حابي بين يديه نهديك الصغيرين، ناعمين، ثمرتين غضّتين.

يهديك النيل ماءه الطهور. تلوَّثَ الآن بعوادم المصانع والمخلّفات الكيمياثية والفضلات الحيوانية.

أما زهر النرجس النقيّ فقد زيّنتِ به شعرك المنسدل، زيت الزيتون قد مسّدتِه به، وعسل النحل ولبن الجاموسة. وفي الصيف خمر العنب الصافية.

أنوثتك المخفيّة وذكورتك المُضمَرة أُقنومان لا ينفصلان في جوهر عشقك المشتعل داخل جوهر كأس الكونياك الأصهب الذي لا أنتهي من شُربه مع المعشوق لا يفيض ولا يمتلىء قط دقّات الطبلة الصغيرة وشوشة الطار في أفراحٍ لم تبدأ هل تستلفين مذاقها؟ مرميّة بالسهم والقوس حطام رأسكِ مغمورة في جرن معموديّةٍ لا نضوب لها جُرن الطرّانة الذي نشف ماؤه النيليّ الآن واندثرت ذكراه صرخات انتصار الحب هتفات قذف العاشق بالمنيّ المهدور رقّة الريحان ورمليّة العِتْر البلدي معاً مكنونةٌ كلها تحت الشَوْهِ والعطَب على حافة الصحراء

الغربيّة في حمى بوبيللو منبسطة بلا نهاية ولدك العتيق الذي لم يأتِ قط، أدونيسكِ حوركِ يسوعك چيڤاراكِ كلهم، مصروعون كلّهم، لم يزدهرْ حتى التفتّق النهائي ولم يذْوِ قط.

أصبحتِ في عداد الآلهة: لن أقدّم إذن قرباني وأنيني.

عروس البحر الدفينة تحت القناع الشائه قد شيّدت دخيلتي لك داراً ومأوى قائماً لا ينقض ولا ينهدم. قناع مقتحم ماذا وراءه؟

قشرة هشّة. القناع، وما وراءه، يصبحان واحداً. واحداً، هما الحاصل الواحد، دون ازدواج أليس كذلك؟

أُحسه صرحاً شامخاً وأعرف أنه شيء قميء، أهو محراب، محراب تقديس أم موطن خطيئة أم هو لا ذاك ولا هذا بل مثوى كابوسٍ مبتذَل ولعلّه تافه في ساطعِ الظهيرة في حارة سدّ وفي قريةٍ رثّة قد دالت قد راحت قد انقَضَتْ.

هذا التفجّع له رنّة الحكمة والعمق والشعر وكأنما ملؤه خبرة السنين. أقول لنفسي، طبعاً: يَاه؟ أتظن ذلك؟ يا سلام! لكنه في آخر الأمر كوميدي قليلاً وشائع وسوقيّ ومكرور حتى آخر الملل، أليس كذلك؟

حَطَب الشِعْر هشّ وجافّ ولا يصلح حتى للوقيد.

شِبَاك الكلمات مخرومة، لا تحجز شيئاً. يسقط السمك عائداً للبحر ميّتاً. ليس عندي شَبَك. الشَبَك هو نفسه السَمَك.

قوقعة ضيّقة الفوهة، مجوّفة، مدوّرة ناعمة البطن، تطنّ بوشيشٍ غير مقروءٍ ولا مُؤوَّل.

٤ ـ نافذة علويّة زرقاء الزجاج

هـذه الحياة تبـدو جميلة هادئـة في إحـدى لحـظات الـرقـة، والمـرء يستيقظ من غفوة الظهر فيجد سماء الأصيل واسعـة رصينة في زرقتهـا الناعمة والريح تهبّ منها على الروح، والشمس دافئة ليست حارّة ولا رازحة، والأطفال يلعبون ويصرخون في الشارع المزدحم.

والمرء حين يجد هذه السماء الناعمة والطيور السريعة تـرتفع فيهـا، وتذهب مائلة منخفضة فوق البيوت المشمسة، ويجد أن هذا العالم كله لا يساوي شيئاً إلا جمالَ لحظة، حنوّ هبوب الـريح الصغـيرة، رفرفـة الطيور، ضجّة المدينة السابحة في شمس العصر، عندئـذ يحس المرء، لحظة، بالسلام يمر بقلبـه، يوحي إليـه بوداعـة هادئـة في استسلامهـا وقبولها للمأساة ـ من غـير رضى بها ـ وفي أسىً لا ثـورة فيه الآن، ولا دموع، لا سخريـة ولا صخَب، بل صمت كـالذي يـأتي في موسيقى جميلة.

كم أريـد أن أجد، في طـريقي، أكثر قليـلاً من هذه اللحـظات، الهدوء الذي يتقبل الجمال في السـماء ويتقبل صمت الـوحدة لا غضب فيه، لا يَشقى من معنى المأسـاة ولا مّما يتقلّب من الضيق بحيـاة الآلاف والملايين يعيشـون في تراب الحيـاة المدقـع؛ ولا تنحـرف به امتدادات ناهشة طفيلية من الهواجس والأفكار.

لكنها قليلة هذه اللحظات.

من خمس سنـوات أو سـتّ كنت أذهب كل عصـريّـة إلى الجـزيـرة

الرمليّة المنسية في النيل، يطفو كل سنة ثم يغرقها الفيضـان، وينحسر عنهـا. أنام عـلى الرملة بعـد الغروب، عينـاني معلّقتان بهـذه السـماء الـزرقاء نفسهـا عميقـة بـزرقـة الغسق. أحلم بحب عـظيم وأُسميـه نبيـلاً، بصداقـات راسخة تتحـدى صروف الزمن، بـأعمال شـاهقة، بروج أحلام. لم أكن عندئذ أعرف السلام. . أو أظن ذلـك. لم أكن أعرف معنى أن يتقبل المرء المأسـاة. هل أعـرفه الآن؟ كنت فيـما أذكر أنزوي في ركن مظلم ـ في الغرفة المقفلة في بيت جدّي ساويـرس، أو في ناحية معتمة من الروح، سـواء ـ وكنت أبكي كطفـل يتمزق قلبـه بضربات عاصفة وجامحة. ألم أكن ـ ألم أزل ـ هذا الـطفل؟ أبكي لأن رحمة، أو لندة، (هل كنت أعرف أيّتهما، أنا؟ كنت أعتقد أنني أحبها، أما زلت أعتقد أنّني أحبّ أيّتهما، كلتيهما؟) لم تكن رفيقـةً إليّ، ولم تكن تعـرفني. (طلبي الحنو والمعـرفة لا ينقضي، لـلأسف.) ولأن أحداً في الوجود لم يكن يعرف أسرار أحلامي، لأن أحـداً لم يكن يستطيـع أن يحب ضوء القمر كما أُحبه، وأن ينصت إلى هـدير أمـواج النيل معي، وينصت معي أيضاً إلى الضجيج الذي يفور ويتقلّب في داخلي.

أو هكذا كنت أظن.

لكن البكاء حقيقي، ولاذع جداً.

في ظلمـة الدمـوع أعـرف في داخـلي أن الـوحشـة لا تـطاق. وأن الصمت جائع، لا ينتهي أبداً.

في العصر إذن كنت أترك الطّرانة المتربة الصغيرة نحو جزيرتي هذه الـرملية ـ كـأنها وجدت من أجـلي ـ في وقدة شمس العصر منـدفعاً لا أحتمل ركود البلد الحـار وإصرار صفّارة الطاحونة في رتابتهـا تصمت

وتصرخ في الفراغ، تصمت وتصرخ، تصمت وتصرخ باستمرار وعناد كأنما ركبها جنون في حرّ العصر، فيم يهمني أنا أن الناس كانت تطحن غلّتها وشعيرها وحِلْبتها وأن المعايش صعبة على كل حال؟

أفرّ، أجري تقريباً، إلى حضن النيل القديم، أعبر المخاضة الضحلة، أرفع ذيل الجلابية وأنا ماسك شبشبي بيدي، أحاذر أن أطبّ في نقرة غويطة وأن يبتل لباسي، وأتلمس موقع قدميّ عبر الماء الرقراق شديد الصفاء.

أتوه في الجزيرة الرملية التي ليس فيها أحد غيري، وليس فيها إلا زراعات بطيخ صيفي تنضج على مهل وحدها ويسحرني تأمل الحبّات الضخمة الخضراء قائمة تغوص في الرملة تقريباً مخفيَّة تحت الورق الزاحف العريض، اخترت واحدة (صغيرة) منها، مَرَّة، فقشتها بيدي، كانت هشّة المكسر، ونحتّها بأسناني وكانت نصف حلوة ولم تستوِ تماماً، ورميت القشر بعيداً بعزم ما فيّ، في أعمق جِتّة في النيل طُلتها.

أذرَع جزيرتي، تغوص قدماي الحافيتان في الرمل الأبيض ناعم الذرّات، ثمّ أجري خلف الطيور الزرقاء التي تطير منخفضة. ألاحقها، يخيّل إليّ أنها في متناول اليد ليس عليّ إلا أن أمدّ ذراعي فأقتنصها لكنها تفلت مني - ألا تفلت دائماً؟ - صورة طائرة في حلم، تندفع، ومضات خاطفة، زرقاء وجميلة، تنخفض كأنما تراودني عن قصد، أجري خلفها واثقاً كل الثقة الآن أنني لن أظفر بواحدة منها قطّ. أحبّ أن أجري خلفها فقط، أملأ عيني ونفسي بها، وبالسماء التي ترتفع

إليها الطيور الزرقاء فجأة، وتهبط فيها بسرعة وصمت، نغمات حية زرقاء مرميّة من السماء.

فإذا شعرت بالإنهاك، وانخطف نَفَسي تماماً، ارتميت على الرمل الأبيض، وأخذت أحفر في الرمال بيدي، حتى تظهر المياه، تنزّ طبقة كالغشاء فوق الرمل، بحيرات صغيرة من المياه الصافية في فجوات الرمال، أقيم حولها، بطفولة، سدوداً وجسوراً، أردم البحيرات، أصنع غيرها، أحلم وقد أوشك المغرب أن يحلّ بي، ثمة أنوار صغيرة محمّرة تظهر من الطرّانة، عبر جسر النيل.

في تلك الأيام لم أكن أعرف معنى السلام.

هل أنا الآن أعرفه؟ هل عرفته قط؟

كنت ملء نفسي أحلام صبيانية في نبلها - سذاجتها، وأحلام بشعة قاسية، تنبثق من حرارة النفس وحُميّا الجسد الذي يضرب شرنقة الطفولة ويخوض أولى موجات ذكورته.

الآن وهواء اسكندرية، في راغب باشا، يشتدّ قليلاً، السماء تعمق زرقتها التي لا مثيل لها، وينحدر النهار نحو المغيب، لم أعد أحس هذا السلام إلا عابراً، ضيفاً يلقي تحية من على الطريق، ويمضي كالملائكة الثلاثة الذين زاروا ابراهيم العجوز، أكلوا تحت خيمته، وبشّروه، ومضوا في طريقهم. كان من بينهم الرب.

في الظهر كنت راجعاً مع شفيق بسطوروس وأحمد صبري ووديع بطرس. أحس بالثقل القديم العنيد يرزح في نفسي، ثقل في كل شيء لا يدع شيئاً إلا ركوداً ساقطاً على قلبي. وهم يضحكون

ضحكـاتهم المقلوبة تلك، شهقـات الشقاء الـذي يـريـد أن يفـرّ من ذاته، زفرات تأكيد الذات تلتقط هواء حيـاتها من قلب زحمـة الحياة، تشهق وتضحك لأنها تجد حـولها تلك العـلاقات المقلوبـة بين النـاس والأشياء، كل المسـاخر الصغـيرة والكبيرة تُخـرِج لسانها في وجـه المرءِ وتُدحرِج حملاقيْ عيونها أمامه.

نحن في ذلك نشقّ الطريق القديم نفسه، الذي اختططناه لأنفسنا بين ركام بقايا أفكار فجّة وعـلاقات شـوهاء وصـور ماحلة، لا أحـد يهتم، ولن يهتم أحـد، بما يحـدث أو سيحـدث، بمـا حـدث أو لم يحدث. كلٌ منا يشق سِكّتَه المرتجلة ـ مهما زعم لنفسه ـ كلٌ منـا وحيد في ذاتـه له أحـلامه وضحكـاته وشهقـاتـه وحيـداً إلى الأبـد، وحيـداً كـالمقضيّ عليه. وحيـداً لا يهتم بأحـد في النهايـة، ولا يعنى بـأحـد. أحقّاً؟

ألم يكن مفروضاً أن الصحبة والرفقـة ـ والحب؟ ـ تقضي على هـذه الوحشة؟ لماذا هذه العلاقات، إذن، تزيد عبء الوحشة؟

في وحشتي وفي لحظات السلام النادرة أُحس دائماً بأنه معي. ولكنه احتمل ثقل وحشته ـ هو ـ حتى النهاية وأزاح بيـده كل هـذا العبء، ومضى.

رصـاصة من مسـدس صغير كـأنه لعبـة: أنا هـارب من الشقاء. رأيتهـا اليوم صبـاحاً، ومـررت بيدي عـلى شعـرهـا. ولمست جبينهـا بشفقي، أحستْ ما بنفسي، واختلجت عيناهـا، وخفت أن أبكي. لا

تتركها أبداً يا بدوي وارعها من أجلي فهي تعسة وأنـا أعبدهـا. منير. الجمعة ١٩٤٥/٥/٢٠ أنا هارب من الشقاء..

أما أنا فلست أملك هذا.

ليس لي إلا أن أنظر إلى لحظة الهـرب من الشقاء، كـما ينظر المـرء إلى حلم من أحلامه القديمة. لن يتحقق بـإرادته. ليست بيـدي هذه اللحـظة الأخـيرة. عـليَّ فقط أن أنتـظر، صـامتـاً، أعمـل وأشهق بالضحك. أجـري خلف طيور زرقـاء لن أمسك بها أبداً، وأرتمي في غسق المغرب منهكاً مازلت أحلم. وعند الليل شقياً وموحشاً أبكي في الظلمة.

قـال رجل البـوليس للمجـرم عنـدمـا قبض عليـه أخيـراً، فشكـا وبكى: قال:

- ياعيني. قطّعت قلبي..

أضغط على رقبتها الصغيرة الملساء بكل قوّتي، بكـل عزمي ألتصق بكل استدارة فيها سعيداً على نحوٍ مـا في حضنها المبتلّ. نطفـو معاً في تموّجٍ واحد متماسك لحمهـا تحت يدي فيـه بضاضـة جديـدة طازجـة تـومض في عتمـة المـاء نجمـة ذهبيـة وحيـدة تتقلّب في اهـتزاز المـوج البطيء والماء قابض وضحضاح. نخبط بـالأذرع ولا رشاش هنـاك. لم أصدق عينيّ وإن كنت أعرف في صميمي أن ذلك محتوم. قلت الغـرق شهادة الحرق شهادة حبّة لامعة في الأذن الصغيرة مازالت نقية محتفظة بكل نقائها في هلوسات الطين. يرتفع الماء فوق رأسي يرتفع حتى يصل إلى عنان السماء تدور ذراعاي حـول جسمها أغـوص بها أحتضنهـا في

صدري. القبلة الآن لا فكاك منها أذوق طعمها الطينيّ. فيه حلاوة خفيفة صامتة. أحب هذا الغرق لا أنجو منه علّمني حسي بفقدانك أننا نحب وحدنا كما نموت وحدنا. غاصت قدماي في الطين الرخو بصمت لم أخرج منه.

لا بل كنت أخرج في الظهر، أضرب في السكك الترابية الضيقة بين غيطان الذرة والقطن والبرسيم، رائحة الخضرة الساخنة تفغمني، أسير بلا نهاية ولا هدف، أدور وأتلوى مع الطرقات، غيطان الذرة عالية محتشدة بالأعواد المثقلة بالورق والكيزان التي تنضج على مهل، في التراب، عالية ومتقاربة أكاد أغرق في حُوشِيَّة زروعها أشقّ فيها طريقي بالكاد، أمرّ جنب المساقي، على حفافي القنوات الصغيرة، وعلى شطّ الرَّيّاح الكبير، ماؤه منخفض وبطيء ومخضرّ قليلاً، غائر تحت الجسر، في حموة الشراقي، ساعة الظُّهريّة المحرقة. حتى أصل إلى النيل.

أنزل من جسر النيل منحدراً متسارع الخطى أكاد أقع، أعرف هذه البقعة التي تترقرق فيها مياه قليلة الغور، صافية وزرقاء تقريباً في شفافيتها، أخلع الشبشب وأمسكه بيدي مع طرف الجلابية الذي رفعته فوق ركبتيّ بكثير، أخوض الماء دون أن أثير الرمال على الأرضيّة الناعمة المتماسكة، أرى قدميّ منكسرتين من لعبة الضوء عند حافة الماء الزجاجيّة تقريباً، ارتفع مع الأرضيّة قليلاً قليلاً حتى أصل إلى شطّ الجزيرة التي أعتقد فجأة أنها لي وحدي؛ أنهج، في الوحدة الكاملة والصمت الكامل تُوشِّيه رقرقاتُ الماء يتشرّبه الرمل الذي يدكن لونه من البلل عند الحافة القريبة العميقة، على الناحية الأخرى

من المخاضة الضحلة التي عبرت منها، هبّات الهواء في وسط النيل ندية وحارة وحلوة كأنها سكّرية الطعم ومُسكِرة نوعاً ما.

أقف فجأة، أتسلل بخطى مسترقةٍ وراء عصفور أزرق طويل الجناحين لا أعرف اسمه، أخطو إليه بخفّة وسكون، أريد أن أمسكه، يطير فجأة أمامي، ثابت الجناحين بزرقتهما بريشهما الذي لا يكاد يتحرك، وكأنه شفّاف، وإذا سرب من الطيور الزرق تحلّق معه، مندفعة إلى الشاطىء الآخر، مرتفعة إلى السماء، ريشها الزمرديّ يتماوج في طيرانها معاً، رفرفتها من غير صوت، انطلاقاتُ أحلام وأشواق ومحبّات غير معروفة بعد، لم أمسك بها قط.

طرقتْ الخيالات بابي، لم أفتحْ لها، بل ماج بي الشوق، واضطرب.

أعرف أنه سوف يُنضيني ويُضنيني خيالُك الذي يطرقني بالليل والنهار، يُشجيني ويُؤسيني، فماذا أفعل؟ أتحملّه، على الكلال. بل أستدعيه. لا، لست أستعذب الوجيعة ولا أطيق اقتراب الألم مني، فكيف إذ يُطبِق، ولا يمضي؟

«طال بي الحبس» صريع الغواني أم صريع الأشواق المحلّقة.
ماذا أستطيع أن أعطيكِ؟

كيف أستطيع أن أمد لكِ يد الحب، في وحشتكِ، وربما دهشتك؟

سيقول لي عمي ميخائيل: جئت لها وجاءت لي بعد أن أوشك النهار أن ينتهي. بعد أن بنيتُ العمر في غير أرضها، ولا أرضي،

فليس لي من أرض ولا مأوى. بعد أن أوشكت يدي أن تكون صفراً من كل شيء، مـن غير حسرة، من غير وجع.

سيقول لي: ليس هناك إلا هـذا الحب الغريب الـذي يعمر غـرفة البيت القصوى المقفلة، الغرفة الأربعين.

ما جدواه لكِ؟ أيّ سَنَد لكِ فيه؟ أريـد أن أُسدي إليـكِ أمناً وعـوناً ونجـدة. لكني لا أعرف هـل أنت حقـاً بحـاجـة إليهـا؟ نجـدة غـير مطلوبة، وربما غير ضرورية.

إلى آخره. إلى آخره.

وسوف أقول: قبلة البدء هي أيضاً قبلة النهاية، ربما؟
قبلة البرء هي أيضاً قبلة العطب الأخير، ربما؟

ولعلني قلت، أو لم أقـل: الـذي قـال هـذا رجـل يحبـكِ، أنتِ، عندما كنتِ وجـوداً مترَقّبـاً مستسلَفاً، من قبـل ومن بعد. أنتِ عنـده وجود واقع مستحوِذ. أنتِ عندما تكونين، وصْلاً، واستحـالة، ذوْبـاً في حضني، ووهماً، ذكرى وتخيّلاً، وابتذالاً يومياً، معاً.

وجودكِ الذي لك أنتِ وحدك.
مثل ظل قطة سوداء تحت نافذتي.
قلت: أين منامها؟

عـلى الأبواب؟ في الحـوش الـترابي؟ في العـراء؟ أم في فِراش وثـير مُعَدّ، خصيصاً، ودفيء؟

في آخر أيام الشراقي، عندما يرتفع مـاء النيل في تلك البقعـة من النيـل، إذا رفعت جـلابيتي حتى وسـطي، وخضت المـاء حتى يبتـل

لباسي، أستطيع أن أعبر إلى الشاطىء الآخر. وأنا أنهج من المغامرة في عتمةٍ تحلّ وشيكاً الآن، حريصاً على أن أخطو في الموقع الصحيح تماماً وإلا غاصت بي ساقاي في مغاور قاع النهر التي لا أراها الآن عبر الماء المضطرب.

أعود من مغامرتي التي لا يعرف أحد ما هِي، منهكاً متربأ مبلّلاً، نسيت الأكل ونسيت ما سوف ألقى من ستي أماليا: يالهوي يالهوي مال وشّك مخطوف كده ياواد؟ دا لُونك ولا البفته البيضا. ياخْواتي. أعمل فيك إيه يابن سوسن؟ هو أنا حاخْلَص من أُمّك ياواد، وحاروح فين من أبوك؟ ياواد اهمدْ بقى وكِنّ هو أنا حافضل انبحْ في حسي لإمتى؟ طبْ تعالَ، تعالَ. غيَّر هدومك وكُلْ لك لقمة.

وتحيطني بذراعيها الضاويتين اللتين تَسَعَان حنانَ الأرض كلها، وهي تحضر لي رغيف البِتّاو، طرياً، سخناً، بالزبدة الطازة التي تكاد تسيل على سطحه المحمر الفوّاح.

عندما كنت عائداً، ليلتها، أخذت الطريق الطوّالي من وراء الطاحونة، حتى لا أدور في الغيطان. كانت العتمة قد ضربت، ونباح الكلاب موحش، وكأنما في البعد عواء يجمّد الدم - مَنْ يدريني ما هو؟ أهو ضبيح ضباع أم وعوعة ذئب؟

في الهيش والحلفا المرعرعة، وراء الطاحونة، حدست حضوراً غير غريب.

تأوّهات المرأة الشبِقة وهتفاتها المكبوحة: آه ياني.. آه.. ياوِيلي ياسواد لِيلي. أوعى عليّ ياخويا بالراحة، من غِير هَبْش ياوَلَه جاك

هَبْشة. . آه ياني. وزحير الرجل الذي ينهج بصوتٍ أجشّ خشن. أصوات الليل والعهر، أنين اللذة المنتزَعة وقسوة النشوة المبحوحة، كانت أرعبَ عندي من عواء الوحوش التي لا أعرف ما هي.

لحقتْ بي، من وراء الطاحونة، وسبقتْني. لم أر وجهها في الظلام، لا يبدو في مشيتها أنها خَجِلة، ولا هي متأثّمة، ولا شيء، طبيعية جداً فيما خيل إليّ، الرضى الجسديّ غير واع، حتى، بأنه رضى أو شبع أو اكتفاء، هو ذات الجسم، مسلّماً به، غير مدرَك ولا موضع للتفكير فيه، قفّة الطحين على رأسها، موزونة في إيقاع خطواتها الهادئة الواثقة، طرحتها عليها هباء أبيض من الطحين وباهت من تراب الأرض - هذا لمحته بسرعة - قائمة العود، لا همّ لها، كمن فرغ لتوه من قضاء حاجة أو أداء شغلة، وارتاح. لم يعلق ببالها شيء.

كنت قد عدت من الطرّانة، سَنَتَها، وكانت أشعار شيلي وكيتس تؤنسني في الغرفة المطلة على حارة الجلْنار. كنت قد أُنسيت الآن نوافذها العلوية الصغيرة، تحت السقف مباشرة، كوى زجاجية لا ضُلَف لها، زجاجها أبيض وأزرق فيروزي، وأصفر. يتقطّر منها ضوء سماويّ دائم، ناعم وخاص. يُشِيع في الغرفة سكينةً عذبة الجوّ، أنيسة المعشر. تبدو لي هذه الغرفة الآن شديدة الفقر والرثاثة، ولكنها غير منفّرة، بل كلّ نفسي حنان لها.

وحتى في الليل كان نور مصباح الشارع يُنَعّم من خشونتها التي لم أكن أحسها حتى. كان شِعْرِي يرقّق حواشيها ويُطريها.

في هـذا الضوء، نهاريّـاً وليليّاً، كتبت أوّل أشعـاري على مـائـدتي الرخامية العريقة بسيقانها الخشبية المشغولة التي نقر فيهـا سوس قـديم ومندثر، خـروماً دقيقـة كثيرة، رخـامها الأبيض الـرمادي في القـرص البيضاوي متعرّج الشرايين، مازالت قائمة، مـاثلة حتى الآن. الكنبة الطويلة مغطاة بفرْش خشن وملوَّن فوق المـرتبة القـطنية صلبـة القوام شيئاً ما، هي كما كانت تماماً من أربعين خمسين سنة، ينام عليها الآن متولي مبروك اللبّان الذي يـدور يوزّع اللبن عـلى شوارع غيط العنب وراغب بـاشا، أقسـاط اللبن الضخمة والـوسطى والصغـيرة، قديمـة اللون، معلَّقة بالترتيب على البِسْكليتة التي يركنها تحت السلّم الحجريّ، وقـد حـلَّ محـلَّ السلّم الخشبيّ طـالمـا انـتظرت مُنى تحتــه في العتمـة، مُنى ممتلئة الشفتين ناتئة السنّ تحت شفتها العلوية، طالما حلمت بقبلةٍ على فمها الواسع النـاعم حارّ الشكـل، لم أعرفهـا قط، هذه القبلة، ولكن عرفت الموت والهجر والنكران، وهو الطبيعيّ والعاديّ والمألوف المتوقَّع، من غير ضجّة ولا صخب.

وعلى الباب أسمـع المرأة تهتف بجـارتها في الحـارة، وهي تطلّ من النافذة التي تقابل نوافذي الزجاجيّـة القديـمة، وتحلف بملء عقـيرتها، بصوتها الحيّاني: إن شالله ينْـزل لي بالسمْ الهـاري لو كنت رميت قشر البطّيخ اللي اتزحلق عليـه الواد ابنـك اسم الله عليه، يـاختي دا حتى مادخلش بيتنا السَنَة دي، وعندمـا أسألهـا هل هي تـذكر سُكّـان هذا البيت من خمسـين سنـة، الستّ أم محمـود، وبنـاتهـا جمّـالات ومُنى؟ تضحك، في غَنْدرة لا محلّ لها، عن فمٍ أدرد تآكلت نواجذه وتقول: أيـوه. خمسين سنـة؟ هو انتّ فـاكرْني عجـوزه ولا إيه؟ دا بَسّ الهمّ

اللي أكلْني ياخـويا. مُنَى؟ وجَمـالات؟ أمّ محمود؟ والنبي مـاشفتهم ولا عرفتهم. آل اللي يعرفك مايجهلك. . !

والجارة من نافذتها العلويّة، صدرها الضخم مدلوق ومدكـوك على إطـار الشباك، تصرخ بصـوت ملسوع بـالولـد يجري بعيـداً عنهـا في الحـارة: يـاواد مِشْ انتَ الـلي شُفت خـالتــك أم سيِّـد بــترمي قشر البـطيخ؟ مـاتردّ يـاواد يامقصـوف الرقبـة، رَدّتْ المَيّة في زورك. مش انت اللي قلت ياواد؟

كان قد رفع جلابيته عن مؤخرةٍ عـارية سـوداء الجلد، وفرّ نـاحية الشارع الذي كانت نفيسة قد رقدت فيـه تومىء، بفصـاحةِ الجسـد، إلى حكاية المضاجعة والتمثيل الايمائيّ لخِلْفة ولَدٍ متوَهَّم في حميّا الردْح لمُنَى، ونحن نرقبها مبهوتين.

أما السرير العالي ذو الأعمدة والدوران المشغول بـالدانتيللا، فقـد كان في مكانـه، مازال، وكـأن أبي سيأتي الليلة متـأخراً، ويسهر عـلى خمسينيّة الكونياك الأصهب ومَزّة شرائح البيض المسلوق المعصور عليه ليمـونة، والجبنـة التركي ونسـيرة الفرخـة. ثم يصعد إلى شقّ ليلتـه، وعشقها، على هذا السرير، بينما أسهر في الغرفة الداخلية المـطلّة على المنور أذاكر، أقرأ مختار الصِحاح، أترجم الشعـر، أرى المروج الخضر الممتـدة حتى الأفق، وبحيرات المـاء الأزرق المثلوج، بينما قبلة حميـدة البرصا مازالت على شفتي، أرتعدُ بها، أتقَدُ بها.

من قوى هذه الأرض الغَمِقة غـائرة الخصوبـة، تُخضِعين النـاس، والآلهة، لسطوتك.

هـل تحملين الرَصَـد و«العَمَل» في الحجـاب الذي كتبـه لك عمي الشيخ علوان بماء البصل والحبر الأحمر والأزرق، بالقلم البَسْط، عـلى ورقٍ كثيف النسيج، مطبّق مثلثات مطويّـة أحدهـا على الآخـر، هل تجذبينهم إليكِ، بـلا حِوَل، مسحـورين، مغمضي العيون والأشـواق المحزّزَة.

في جنينـة عم تومـاس لاوندي تُسقِـطين ثمرات الجـوافـة. فَخْـلا رمّانك ينضجان حتى العطن دون أن يستطعم أحد رضابهما. الحبّـات الحمراء متحدّرة من الفم المشقوق.

حارسة طِيبة عوراتك متجددة أبداً، ناعمـة ومحرقـة، من جديـد، للشفاه النهمة، في عمى شهوتها الساطع.

ضـاربة الـرمل هـامسـة إلى الـوَدَع مخـزومـة الأنف بحَلَق نحـاس مشرشر.

قلت: أحفظ عليكِ كبرياءك.

بنت الحبشيّ النجاشي الأحمر، منبثقة من طمي النيل منذ الدهور.

صاعدةً من قوقعة الظلمة رافعةً ذراعيها، طرحتها السـوداء الباهتـة قد انسلت من على كتفيها، بانَ عَظْم الترقوة الأبيض المزيـل من خروم الثوب الملبوس على اللحم تتضرع لحنان موسيقى لن تسمعها قط وإن كانت تعرفها في العمق منذ الأزل السحيق.

أدحضـكَ يا أبـا النـور في عتمـة سـمائي تحت نخلة مـولـدك، تحت شجرة زيتونك، أُنكر ملاذي، أنفي مرجعي نفيـاً، آفاقُـكَ دارت بي تضيق سدودها، طائرُ القلب مذبوح عـلى ماء حيٍّ يتقـطر دمي دمكَ

نقياً وملوّثاً آناً فآناً في وعـاء الخزف الـلامع المصقـول الخارج تـواً من الفرن.

بيـدي اليمنى أنضح رشّ المـاء الحـرّ عـلى الـوجـه المضروب بقبلةٍ أبدية.

ها قد انطلق طيْري بأجنحته الزرقاء محلّقاً في أجواز السـماء المغلقة سبعة أيام بلياليها لا يأوي إلى كِنّ ولا ينتهي منفاه.

ثغاء الخروف الفادي يتردد به الصدى يحمـل الثغاء، كـالملاكـيْن، فرخَيْ حمام، إلى شمسكَ التي تضع قـطرة من زيت الميرون عـلى أذني اليمنى عـلى إبهام يـدي اليمنى على إبهـام قدمي اليمنى، طاهر طـاهـر طاهر، ما يتبقى من الزيت تمسحُ به على رأسي لا حاجة لي به أَنفضه عني أجحده أُوقد من أمشاج روحي محرقةً لا أريد لـدخانها أن يـرتفع إليكَ بل هو يلتفّ عائداً إلى حشاي.

أموسيقى الليرا الذهبية موسيقى المزمار موسيقى السمسميّة تغسـل أدران التوحّد مع عروس النيل في موتها المائي وانتفاخ بطنها بالموت؟

ومـع كل شيءٍ فليس ثَمّ تـطهير قط لأن الـطهارة قـائمـة أزليّـة لم تمسسها قط لوثات الغضب والصَغار.

ياهلترى إيه اللي انكتبْ للفؤادْ
شُوك الضنى ولا عبير الودادْ

هـل كانت سينـما بلازا، أم سينـما الكوزمـو؟ وهل كـان هذا هـو مشهد السور الحـديديّ الـطويل، قـوائمه، كـالرمـاح، تتعاقب تحت ضوء البروجكتـور المتحرك عـلى الشاريـوه، بقعة نـور مستديـرة وسط

الظلام، تُلقي ظلالاً متلاحقة على ما يبدو أنه غيطان موحشة أو حدائق شاسعة مهجورة، والصوت الباكي يكوي الروح وهو، بعد، طفل: يالوْعتي ياشقايَ، ياضنى حالي، ضاع الأملْ من هَوايَ. . فيم كان الطفل الصبيّ يبكي في عتمة السينما؟ ضحّيت غرامي، عشان هَنَاكِ. . أيّ غرامٍ مهتوكٍ ومدمَّر في غرارة الصبا وروْع اليفاعة الماثلة وانهيار كهولةِ الروح معاً؟

آيّة أوهام تلك التي صاحبتك ـ وتصاحبك ـ منذ ذلك العهد السحيق؟

هل أنت ـ حقاً ـ من ضيَّع في الأوهام عمره؟

أو كما قال؟

لا أستسلم. . أستسلم. . لغواية اليأس. .

لا. . لا أستسلم. .

أستسلم. .

لا أستسلم. .

لا. .

٥ ـ الحائط القبلي المهدوم

في أول صباح حارٍّ من مسرى، بعد أن ارتفع النيل وملأ الجُرن، رأيت المعلم جورجي مقبلاً علينا، رافعاً رأسه، كما يفعلون جميعاً. يخبط الأرض بعصاه خبطات منتظمة، يتحسس السكة بها، واثقاً عارفاً ولكن شكله قلِق ومنذر، وهو يعبر من تحت شجرة النبق العريضة أمام بيت جدّي ساويرس.

وقف على الباب ونادى:

ـ ياهْل الله . . يابا ساويرس.

قبل أن يدخل، يتلمس العتبة بعصاه حريصاً وحافظاً، ضرب جانبيْ المدخل بعصاه، وعبر من الباب الخشبي العريض.

قال بصوته المليء، الباريتون، من فوق البطن، إن الحائط القِبْلي للكنيسة قد سقط اليوم، الصبح بَدْرِي.

قال إنه رأى ملاك الرب، نعم رآه، رآه ساطعاً في ملكوته. ضرب الجدار ضربة واحدة بسيفه البتّار. المجد للرب. ضربة واحدة مرت في قلب الحائط الحجري الكبير. بسرعة. ونعومة.

كانت النار تتقد على حواف السيف العريض أحسست وأنا راقد في الحُوش القبلي البراني لفْحها؛ مانْتَ عارفُه يابا ساويرس.

قال إنه أحس لفح النار قبل أن يرتفع السيف الضخم، ثم رآها. رأى صفحة السيف ممتدة تومض، مونعة تجري على وجهها شعاليل صغيرة وتنزلق عليها بفحيح. ثم سمع هَدَّة الضربة القاصمة.

يابا آرساني كانت الضربة لِيَّ. لِيَّ أنا.

قال إنه سمع حجارة الحائط القديمة الكبيرة تقع، متدهورة ولها لَجَب متلاحق كالرعد. وعندما قمت على حيلي وذهبت إلى يمّ قِبْلي كان هواء الصبح يهبّ على وجهي حُراً دون عائق، وعرفت مِن أبونا أن العمود الرخامي الذي كان الحائط مبنياً عليه، قد مال إلى جنب، وأخذ معه الخزنة الخشب وفيها السنكسار القديم المجلّد بجلد بقر أصلي، والصور والأيقونات المصلّى عليها، والأناجيل القبطي والعربي، راحت تحت الحجر تحت كومة الأنقاض التي ارتفعت مرة واحدة إلى أعلى مما تطوله عصاي. يارب ارحم. كيرياليسون.

قال رأيته يأخذ تاج العمود الضخم كرحى عظيمة منحوتة ومنقوشة بالخط القديم، قال رأيته؛ ورماه بضربة ذراع واحدة ناحية النيل؛ سمعت خبطة الماء، وحصّلني رذاذه، سقط في البحر وارتفعت له نافورة هائلة وظلت الهوّة التي تركها في سقوطه مفتوحة، رأيتها، لم ترجع المياه إلى أصلها، وكالحصّاد بمنجله قال ملاك الرب بصوت عظيم هكذا ستُرمى بابل المدينة العظيمة، ولن توجد فيما بعد، هكذا سوف أطوّح بكلِّ الخطاة إلى الهوّة المفتوحة.

قال الانجيل وحده سوف يجبر المكسور سوف يقيم المعطوب. كانت عيناه جاحظتين، خلع نظارته السوداء، لحظة، كان بياض الحملاقين باهتاً، ويتقلبان دون هدى، دون مركز. وأعاد النظارة على الفور.

لم نعرف إلا بعدها بساعات عندما عثر الفلاحون بالصدفة على

عمي باسيلي ممدداً دون حراك، مكسوراً تحت الأنقاض تغطيه الحجارة الكبيرة. فاقد الوعي، ظننّا أنه مفقود الرجاء.

وعندما نقلوه إلى البيت الطيني الصغير في حُوش الكنيسة، صلّى عليه أبونا أندراوس، فتح عينيه فقط. قال بصوت ملتبس غير مستبين: جورجي. أخوي، ولم يتكلم بعدها قط. كانت عيناه فقط تلمعان، وإن كانت عينه اليمنى قد توقفت في محجرها، لا تتحرك، وثقل جفنها. ذراعاه ساقطتان إلى جنبه بلا حياة، وساقاه، كلتاهما، مشلولتان. فاجأتُه، على الرغم مني، في غرفة الست حنينه، متردِّياً ومتجمِّداً في آخر الصيف. وفي الصيفيّة التالية عرفت أنّه استطاع أن يمشي، بعنَت، مستنداً إلى عكّاز مرتجَل معمولٍ كل شيء انْ كان من فرع جميز عفيّ.

لم يكن المعلم جورجي يعرف أن أخاه كان قد قام من فَرْشته في صُبْحيّتها، وأن حائط الكنيسة القبلي سقط عليه. ضربه ملاك الرب كأنه يعاقبه على إثم لم يرتكبه، أهذا هو مصير الأبرار؟

عمي باسيلي الطيّب، الفتيّ، شديد الأسْر، هو الذي كان يقوم بذراعيه العفيّتين على فِلاحة القيراطين اللذين تركهما أبوه، آبا ونجت درباس الكبير. يقوم على معاشه ومعاش عمي جورجي، مستورَيْن الآن، لم يعد في مُكْنته أن يقوم، على الإطلاق، على حِيله. راح فيها الرجل.

كان محتقناً، مزروداً بالدم، وجه المعلم جورجي المكتنز المترهل بجلده المزرق أصلاً، منقوراً بآثار جدري قديم، عيناه الجاحظتان

مبقورتان ونيّتتان، تدور المقلتـان من غير رؤيـة، وتحس أنهما تتبعانـك مع ذلك، وترصدان كل حركة في داخل نفسك أيضاً. لم يعـد فيهما - الآن فقط - حسّ التقحّم والفجور والبذاءة التي عـرفْتها فيـه، وقبلتها منـه الطرانـةُ كلها، سلّمت لـه بهـا، من زمـان. بـل حسّ الـروع، والتوجس، والمعرفة بالخطيئة.

لا صلة لذلك كله بأنه عريف الكنيسة وكبير الشماسـين وحافظ لا تخونه الذاكرة للخولاجي ولألف ترنيمة بالقبطي والعربي، وأنـه هناك حيث يجـري كل شيء كبـير أو صغير في الـولادة والتنصير وجَبَـانْيُوت الخطوبة وأكليل الزفاف وقُدّاس الجناز، في رش الماء المصلَى عليه بعـد أربعين الميّت لإراحة الروح من عناء الانفصال وإطلاقها بسلام، عند تفريق الملبّس، وشرب المُغات وأكْـل جسد يسـوع وشرْب دمه، عنـد توقيع عقود البيوعات والإيجارت، بعد جمع القطن، في كيل القمـح، عند ذبح الوزّة، وعِشار الجاموسة، في لعب الطاولـة والدمينـو وعشرة البصرة، وعنـدما يـأتي حكيم المركـز - في الشديـد القوي - أو ضـابط النقطة، على السواء. حضوره في كل مناسبة وبدون منـاسبة، بعينيـه المسـدودتين وتلمّظ شفتيـه الدهنيّتـين، في تعليقاتـه البذيئـة وحكايـاتـه القبيحـة مباشرة اللفظ بـالعربي الصريـح، شيء يحس الجميع بـراحة إليه، بمتعة فيه، حتى، كأنها محرّمة قليلاً ولكنها مسموح بها ومتـواضَع عليهـا لأنها أسـاسيـة، كالمتعـة التي تفاجئ يـديك وجسمـك عندمـا تقبض عـلى استدارة امـرأتك، المليئـة، مقبّبة، كـالعجين الخمـران، وتغوص في الليل.

الطرّانة كلّها وكليلها تتكلم بمتعة دائماً وحسٍ من الفضيحة أحياناً عن أن المعلم جورجي يشاهد ـ بجرمه المهول وعصاه الضاربة ـ كيف لا يُشاهَد؟ ـ وهو يدخل وحده، دون ورع، بيت الست جِنينه، وهي وحدها، دون ورع، في أنصاف الليالي ـ يعني بعد مغيب الشمس على الحقيقة ـ وكيف أنه يشاهِده الفلاحون الذاهبون للغيط في نداوة الصبح البدري، والعيال السارحون بالمواشي، والنسوان حاملات الزِلَع والبلاليص في موكبهن المرِح إلى مياه المسقى تحت جسر النيل، حيث اللوميّة جارية صافية ترد الروح، يشهدون أنه خرج من عندها، قبل طلعة الشمس، متجهاً يمّ الكنيسة، إلى غرفته الطينية التي بناها له أبونا أندراوس. الله يرحمك بقى يا عم مِيساك يا بنهاوي، تموت بالداء الخبيث ـ اسم الصليب يحمينا ـ وتترك هذه المرأة متفجرة بالجسد متوقدة بالشهوة للحياة، وحدها من غير خلفة، لم يكن في طوعك أن تخلّف، لكنك تركت لها الستة فِدْن والقيراطين في جنينة عمي توماس.

كان عمي سلوانس الصرّاف يقول دائماً يا جماعة فُضوها سيرة بَجَى، مَنْ كان منكم بلا خطيئة. . .

فتقول ستي أماليا، بإصرارٍ وببساطة: ربنا يسامحني في يوم الجِيامة بسْ الوِليّة دي متفرِجْشِ عن الفواحش. هو الفُجْر يدّارى؟ جال تَلاته ما يستخبوْش العِشْج والحَبَل والركوب ع الجمل.

يردعها جدّي ساويرس، برفق، لكي تترك الحساب لربّ الحساب. الله وحده الذي يغفر الخطايا، بشفاعة ستنا مريم،

والقديسين. ابن الإنسان وورثته على الأرض لهم السلطان أيضاً. الإيمان يخلّص يا أم يونان.

ويقول أبا آرساني، صارم النظرة ومقدّد الخدّين، يامُ يونان المجدليّة التي كانت تعيش في الخطيئة سكبت على ساقيْ المسيح قارورة الطيب، ومسحتهما بشعرها. غفر لها يسوع، بل كانت أول من ظهر له، بعد صعوده بالجسد.

فتجيبه دون شرّ، بل دون سوءٍ أصلاً: ياخْواتِي! آه منكم يا رِجّاله..!

فهل كان في مقصودها أن يسوع كان، أيضاً، رجلاً؟

ذهبنا للكنيسة صباح الأحد التالي، نحضر القدّاس، ونتناول، ونرى بأعيننا الحائط المهدوم.

سرنا عبر طرق الطرّانة الضيقة المتلوية، تحت النخل العتيق مائل الجذوع، والجميز العتيق، والكافور مشروخ السيقان، وبيوت الطين العتيق.

كانت لندة ورحمة وخالتي روزة وخالتي سالومة يسبقننا بخطوات، وإن كانت انحناءات الحارات وحيطان الأحواش المفاجئة تحجبهنّ عنا لحظة، ثم تكشف عن حضورهن، على غير توقع، أمامنا مباشرة، كأنما بسحرٍ صباحيّ.

أجيء أنا وراءهن ، ومعي خالتي سارة وخالتي وديدة، وجدي ساويرس مهيباً، عصاه السميكة قويّة العَضَل تدق الأرض تثير تراباً

خفيفاً عند كل ضربة. ستي أَماليا بقيت في البيت تعدّ غداء الأحد، طبيخ بالزَفَر، مخصوص.

فستان لندة المشجّر الأصفر منقوشاً بزهور حمراء دقيقة منسدل عليها بانسياب. أدهشني وأثارني ـ على الصبح ـ أنّه كان ضيقاً، نوعاً ما، على ردفيها، ثم ينبسط إلى كورنيش تحتانيّ به كشكشة واسعة فوق القدمين مباشرة، وهي تسير بحيوية وتوفز، وواضح أنها غير معتادة على المشي بحذائها الرجاليّ الغالي البُنيّ. كانت دائماً بالشبشب، وأحياناً حافية بجرأة ودون تورّع.

وكانت تتأخر عن الموكب النسائي السحري، قليلاً، وترميني بنظرة سريعة متواطئة. أو أتوهمها.

وعيال الفلاحين ينظرون إلينا بفضول طفوليّ، ونزوع للعفرتة يكبحه مجرد وجود جدي ساويرس، بقامته الطويلة الشامخة، لا ينظر لأحد.

كانت الحجارة الساقطة قد سدت الحَارَة الخلفية وراء الكنيسة، وقطعت السكة على السراية. وكان العيال يتسلقون الكومة العالية المضطربة وهم يتنادون بأصوات فرحة ومستثارة، وينزلون من الناحية الأخرى، تحت سور حوش الكنيسة، من الخارج.

كانت الفجوة الكبيرة التي تشق الحائط القِبلي شقين، قد شُدّت عليها صفحةٌ كبيرة من قماش الخياميّة الذي تقام به سرادقات الأفراح والمآتم على السواء، جاء به أبونا أندراوس من كفر داود، منقوشاً بالأحمر والأزرق بتخطيطات الأرابيسك، في قلب كل وحدة من

التفـريعات يتكـرر «الله» بالخيط الأبيض المغـبر قليـلاً، فتـائله كثيفـة وبارزة قليلاً، القماش مسنود إلى عوارض خشبية مائلة نوعاً ما، يخفي كومة الحجارة، ويتسلل من حواليـه نور النهـار الخارجي الـذي يضع إطـاراً غريبـاً ودنيويـاً حول حـوافّ القماش في عتمـة صحن الكنيسة الفسيح. هالات الشمـوع الكبيرة المفـردة تؤكـد نسيـج هذه العتمـة الأخـرويّ المفهاف. تنتـثر فيها تفـاريق ومجـاميـع الشمـوع الصغـيرة المتزاحمة، معلّقة في نجفات خشبية عريقة ومشقّقة بخطوط العراقة.

كنا نحن الرجال القليلين إلى يمين الكنيسة، أما النساء فقد غـطين رؤوسهن بالمناديل والطُرَح، وعـلى رغم الحرّ كـانت أكمامهن - كلهن - طويلة، وأثوابهنّ سـابغة، وكـانت ظلال أهـدابهن، في نور الشمـوع الرفيق، مفروشة على الخدود الناعمـة، وترقّق جفـاف عِظام العجـائز منهن.

يـاربّ أنت تعـرف ضعفي ونقصي وخـطايـايَ فبنعمتـك اسنـدني واسنـد كل الخـطاة بقوّتـك آزرني وشددني وكـل الخـطاة إن حـاربتُ وحـدي وانتصرت على الشيـطان وحـدي فقـد يصيبني عـوار العُجب والكِبر فأسقط في هـوّة النار التي لا قـرار لها وتغيّبني لجّـة اليمّ المفتوح سربلْني يارب بثوب البرّ واكسني بإزار العفّـة يارب من فـرط مراحمـك أن تغطيني بنعمتك فأعرف ضيقـة نفسي ونجاسـة قلبي وفساد طبيعتي وإن سقطتُ بلا نجدة فقد تدهمني صقور اليـأس الناهشـة ولا مفرّ لي فأعطني أن أثبت عينيّ بك إلى الأبد لـولا نعمتك لا أخـرج عن صغر نفسي ياربّ ارحمْ كيرياليسون كيرياليسـون.

قلت كان يصلي له. لا. لها لي لعمي جورجي لنا كلنا.

قلت ليست صلاتي ليست تضرّعاتي. ملاذي كبرياءُ سقطاتي لا أعرف مدى أحقّيتها.

كانت لندة مشتعلة الخدين نارَ الصلاة.

كنت أعرف أنها تدعك وجهها الناعم بقماش التافتاه الحمراء حتى يتضرّج خدّاها وتعضّ على شفتيها بأسنانها وتكحل عينيها بمرود فضيّ رقيق الحافة من مكحلة منتفخة البطنِ فضّتها لامعة دائماً، وتساعدها خَضْرة، بتواطؤ نسويّ، على أن تختفّ تحت غديرتها تماماً فيبدو شعرها الوَحْف كأنه ينبثق فجأة على جلد وجهها الغضّ.

لكنني وأنا أخالسها النظر في الكنيسة كنت موقناً بأن هذا التضرّج ربانيّ، من وقدة الصلاة بالقبطية والعربية، ومن وقْع تراتيل المعلم جورجي بصوته العميق الذي يملأ صحن الكنيسة ويهزّ شعلات الشموع ويشرئبّ له الجلد والقلب معاً. وجهه الخشن المنقور بخروم الجدري العتيق كأنما قد صَفَا ونوّر.

رأيت ـ أم خيّل إليّ؟ ـ قطراتٍ من دمعها، بلّورية، رائقة، كاملة التدوير، تسقط ببطء على الخدّ المتوهّج الرخيم.

قبّة الكنيسة عالية بعيدة في العلوّ، خشبية وعارية وقاتمة، متقنة الدوران مع ذلك، قائمة من جانبيها على أعمدة رخامية رفيعة، اصفَرَّ رخامها ـ من ضوء الشموع أم من التاريخ؟ ـ تيجانها رومانية الشكل، وبين الخشب العتيق والرخام توافق وتنافر ريفيّ، يزيد من إيقاعه الفلّاحي دوران الشرفة الخشبية التي تطوف بصحن الكنيسة

وتنقطع عند الهيكل، خالية الآن ومظلمة، أحسست مع ذلك أنها معمورة، ترصدنا، يَقِظة ومتنبّهة لأحوالنا.

حجاب الهيكل أيضاً من الخشب البُنيّ الذي اسودُّ الآن تقريباً وسقطت أطرافه متآكلة، متداخلِ التعاشيق، بهتت فيه تطعيمات العاج السمنيّ، وبعضها حلّ فيه محلُّ العاج الضائع تجويفات فاتمة اللون، وأبونا أندراوس في ثياب القدّاس الذهبيّة قديمة التذهيب يأتينا صوته الأخن، يرتفع أغنّ مسترسلاً ويتدهور هامساً أبحّ بالقبطية، بمتعةٍ فيزيقية بحتة، وهو يخدم الحضور الإلهي في حَرَم الهيكل.

أما تراتيل عمّي جورجي فقد كان لها صدى غائر في رَحبَة الروح، وملء صحن الكنيسة. كان صوته الجوفيّ مع ذلك رنّاناً موسيقاه صافية. هو الصوت الذي نعرفه في بذاءاته واقتحاماته، لكنه مروَّق ومنقّى، وفيه ترجيع عذب وآمر في الوقت نفسه.

ثم دارت بي الأرض.

كان عمي جورجي مرفوعاً، معلّقاً، ملصوقاً بجمود دون حراك إلى قبّة الكنيسة.

في جانبٍ من القبّة، هناك في العلوّ، ثابتاً بلا حسٍ ولا نأمة، بجثته الضخمة، بجلبابه الملفوف بوشاحِ كبيرِ الشمّاسين لكن لونه لم يعد أحمر قانياً بل هو رماديّ كالح.

لم أصدق عينيّ. لا أصدق. وأعرف بيقينٍ كامل أن ما أراه هو وحده الحقّ. أراه، هو نفسه، معنا، تحت، يقود الشمامسة الصغار، يضرب على المثلث النحاسيّ وعلى الصنوج ذات الصدى، يرتل بذلك

الصوت المليء بالجسدانية والقدسية معاً، في جلبابه الملفوف بالوشاحِ مونع الاحمرار.

كبير المرنّمين الإلهيّين قائد المِثين رئيس الملائكة صاحب السيف الناريّ البتار. رآه جورجي الذي لم يكن يرى.

أراه الآن في هيئته الأرضية.

ألم يره أحد غيري؟

أم أننا كلنا رأيناه، معنا في صحن الكنيسة، ولم نر غيره؟

بينما جورجي مرفوع.

الخاطي الزاني ليس له إذاً مكان في المقادس المكرَّسة للربّ صارِم المحبة.

كنت أختنق في تراب الطرّانة، سكران بحرّها، ونشواتها.

شدّ ما أحتاج إلى إرادة قوية، بل جبارة، وساخرة أيضاً.

هي التي تستطيع أن تنجيني من موت الأصباح الخاوية من ساعات احتضارٍ متصل بين أحلام شبقيّة متلاشية. خيالات تنزّ حميدة حنينة لندة خضرة رحمة السراري والجواري سواحر ألف ليلة والحُور العين القيان وحوريات المروج كالغلمان تجسُّدات نصف ناضجة وتوهُّمات حارّة هُولات مضطجعة متثائبة حادّة الأسنان عرائس البحر وجنّيات النيل المنهومات كأنما عليّ أن ألمّ أنقاض هذه الكائنات لا ترميم لها أريد أن أصنع لنفسي إلهاتٍ جديدات أبكاراً، نوايا نصف مطبوخة نوبات ضجر امتدادات قاحلة مستنقعات ملحة أُفسح لها ساحة

صدري تتمدد فوق سطحها الآسن طحالبُ غير شائقة ثمر الروح المضطرب ليس من الروح لن يأتي اليوم الذي يعود فيه الغريب إلى حِماه لن يعود إلى الوطن لن يأتيه وطن أين أرضه على فخذيْ مَرْأته في تربة إلاهته ليس له أرض المحبة هي أولى ثمار الروح.

يا للأوهام ـ والأفهام ـ قليلة الذكاء وشائعة حتى الفهاهة ونصول الفِتَل.

المحبة بَذْل يفوق كل عقل وكل مفهوم. ها ها!

كان، أول مرة رأيته، قد مدّ لي يده، بحكم العادة، لكي أبوسها.

أرى هذا الصبيَّ صغيراً ونحيلاً وفي الثالثة عشرة يشدّ على يد الكاهن بقوة دون أن ينحني عليها بقبلة التبجيل التقليدية، وهو ينظر في عينيه مباشرة. نظر إليه أبونا بدهشة، قليلاً، وقال: هو أنت بَجَى ابن بِتّ ساويرس؟ اسم الصليب وشارة الصليب، حارسك لا يغفل ولا ينام. وضحك بطيبة قلب وسماحةٍ وامتلاء صدر، وأحببته بعد ذلك كثيراً ولكنني لم أُقبّل يده قط.

كان يحبّ أن يأتي يلعب الكوتشينة ـ بَصْرَة، لا يغيّرها ـ أو الطاولة أو الدومينو مع جدي ساويرس أو مع ستي أماليا التي كانت تتقن الدومينو إتقاناً كاملاً، أو حتى مع خالتي سارة الصغيرة. أما خالتي وديدة فلم تكن تحب اللعب. وكان يطلع دائماً ـ ياربِّ ـ مغلوباً، ولكن سعيداً رخيّ البال. كان يخلع عِمّته الزرقاء المدوّرة، يضعها فوق المخدّة المفروشة على المصطبة، أمام الباب الكبير، ويلعب

بحماسة، ولا مانع أن يغشّ أحياناً في اللعب غشاً خائباً ومكشوفاً كأنه يفضح نفسه بنفسه وعندما يضبطه أحد يضحك ملء صدره. وكان يحب أكْل ستي أماليا عامْله إيه النهاردي ع الغَدَا يامّ يونان؟ لا بَجَى ملوخيّتك شهْد مصفّي، تِسْلَم الأيادي، ويدوم العزّ.

وكان جورجي العريف يأتي أحياناً ويشارك في اللعب بحذق، أصابعة مدرّبة ومبصرة. معوجّة قليلاً في اكتظاظها باللحم، تتحسّس أقراص الدومينو بسرعة، بين الإبهام والسبابة، وتعرف الرقم من التجويفات الدائريّة الصغيرة في وجه القرص، ومهما كانت براعة المعلّم جورجي ودربته المشهود بها في كلّ بيت، كان آبا أرسانيوس، ابن عمّ جدّي ساويرس وأبو فانوس، دائماً يكسبه. ويعابثه في آخر اللعب هو انت عايز تكسب كلّ حاجة يا جورجي يا خويا، فيضحك العريف ضحكته الجشّاء ويلتقط، بين شفتيه السوداوين اللامعتين ولسانه، حركة تلمُّظ، في تذكُّر لذاذةِ متعاتٍ أخرى، ومكاسب لا علاقة لها بالحساب، ومايزال يضحك ويهتزّ كرشه المدوّر في القفطان الصيفيّ الحرير، اللهمّ اجعله خِيْر يا وْلاد.

كان أبونا أندراوس يأتي، بعد الظُهْريّات، في جُبْته السوداء الحريريّة ـ لم أكن أعرف الطرّانة إلاّ في الصيف ـ فوق جلابية ناصعة البياض، وياقتها مقفلة ومُنَشّاة ولكن رقيقة، حتى في عزّ الحر.

لم أر زوجته قط، كان بيتهم الصغير قِبْلي البلد، يَمّ الكنيسة لَزْق. ولم تأتنا قط في زيارة، سمعت من الكبار أنها لا تخرج من البيت، وعرفت بعد ذلك بسنين طويلة أنها خرجت منه أخيراً إلى بوبيللو، وأن أبونا أندراوس لم يلبث أن لحق بها.

لم يحضر إلا القليلون أكليــل عمي جـورجي عــلى الست حنينــة معوّض في الكنيسة التي بدت يومها واسعة وفسيحة وخالية، ومع أننا كنا هناك إلا أن ستّات الطرّانة لم يأتين، كأنما كلهن متواطئات، وكان أبونا أندراوس متعجلاً وسريع الإيقاع في أكليل عرِّيفه وكبير شمّاسيه، كـأنه يـريد فقط أن يخلص بسرعـة من مسألـةٍ محرجـة قليلاً، مـع أن يسوع هو رب المغفرة، ولا يردّ أبداً توبة من يطرق بابه، وخرج عمي جورجي وأخوه باسيلي ـ محمولاً على كتفيْ أولاد الحلال، يهتز جسمـه بلا حَوْل ـ من الغرفة الطين في حوش الكنيسـة إلى البيت البَحَري في آخـر أطـراف البلدة، جنْب السـاقيـة القـديمـة، الـذي بنـاه ميسـاك بنهاوي. ربنا يقدّس روحه بقى.

في آخر هذه الصيفية كانت خالتي روزة وخالتي سالومة ـ مع لنـدة ورحمة وخضرة ـ تزورهم في هذا البيت البحري. وذهبت معهم.

سلّمت عـليّ الست حنينة معـوّض بيد بيضـاء متهـاويـة لا عصب فيها، كالملبن فيها هبوة من عطر الصندل السوداني. كانت مضـطجعة نصف راقدة نصف جالسة على كنبة اسطنبولي في غرفة داخلية حارة، حتى وهي مفتوحة الباب والنافذة.

جسمها الممتلئ يفضّ وينز من الجلابية الفلاّحي الحـرير، سـوداء منقوشة بزهور حمراء كبيرة تربط بينها فروع خضراء متواشجـة، خيوط أغصـان تهبّ بها، وتخبـو، رياحُ الجسـد الدفينـة، في تنفّسها الـدفيء يصعـد، ويهبط، بصدرهـا الذي مـلأ سُفْرَة الفستـان فتكـوّر خلفهـا واستـدار في جِرم مكـوَّر ومنبعج ومشير في ضخامتـه. وكانت عينـاهـا

المكحولتان بخط كثيف شديد الزرقة كأنه أسود حالك، تلمعان، بياض المقلتين المتنفختين قليلاً ناصع ومضيء.

سألت أبونا أندراوس ماذا ستصنع بالكتب المقدسة والصورة الدينية الممزقة التي سقطت عليها أنقاض الجدار القِبلي للكنيسة، والأيقونات التي دُمّرت، فقال طبعاً سيحرقها، ويطرح الرماد المتخلف عنها في ماء النيل الجاري، أو يدفنه في الأرض المكرّسة في بوبيللو، حتى لا تدوسها الأقدام، حتى لا تتدنس.

قال: دي حَاجَات مُجدّسة يابني، من حجّها علينا الاحترام الكلّي. كيف نسيبها تتهان ولاّ تتنجس؟ دا حتى إهانتها يبجى شرّ، شر مستطير مين يعرف عواجبه إيه علينا إحنا، فرداً فرداً، وعَ الْبلد كلها؟ دي حرومات يابني حرومات.

وسألته طيب ماذا سيصنع في الحائط القبلي المهدوم؟ متى سيصلحه ويعيد بناءه؟ هل يتكلف الكثير؟ فقال إن الحكاية ليست حكاية تكاليف، وإنما حكاية الخطّ الهمايوني. سألته ماذا؟ قال يابني دي حكاية طويلة. إذا حدث أيّ خللٍ ـ قال ـ أو تَهَدُّمٍ في كنيسة فلا بد من أمر ملكي يصدر من السراي ويوقعه جلالة الملك وينشر في الجريدة الرسمية ولا يعمل به إلا من تاريخ نشره ـ قال ـ هذا شيء من زمان بعيد، من ١٨٥٦ يعني من مائة سنة تقريباً قل تسعين أقل من تسعين شويّة، وفكرت أن أبونا أندراوس على الرغم من كل شيء كاهن جيد وأنه ذاكر دروسه، قال إن اسمه الفَرَمان العالي الموشح بالخطّ الهمايوني، وأنّه نَصّ على أنّه يلزم أن يُقدّم طلب ببناء الكنائس، أو ترميمها، إلى الباب العالي. وأن السرايَ الملكية هي

الآن الباب العالي. حتى بعد الاحتلال البريطاني وإلغاء الخلافة العثمانية وانتهاء سلطنة مصر وبعد الاستقلال و ٢٦ فبراير وسعد زغلول والدستور والنحاس باشا ومكرم عبيد وإعلان الحرب، قال إنه كتب بالفعل لمطران البحيرة وإن المطران سيجري اللازم، لا بدّ من المطران، هو ـ أبونا أندراوس ـ لا يستطيع شيئاً.

ولما تركنا الطرّانة بعد ثلاث سنين كان الحائط القِبلي مايزال مهدوماً.

بعد الثورة والنكسة والعبور والانفتاح والصحوة وعلى مشارف نهاية القرن العشرين مازال الهمايوني سارياً. أمازال الحائط القِبلي مهدوماً؟

أبونا أندراوس لم يعدم حيلة. ترك قماش الخيامية مشدوداً، وبنى حائطاً مرتجلاً من الطين اللبِن، ليلاً، سدّ به الفجوة المفتوحة على نور النهار وعلى ضوء السماء، بناه خلسة وفي خفية عن السلطات. يعني السلطات في المركز وفي مصر، أما العمدة، وشيخ البلد، وكل الناس فكانوا يعرفون، وسكتوا.

الشيخ حامد الدسوقي، الله يمسّيه بالخير مانْت عارفُه، عوده منصوب ونظرته نظرة الصقر، قال للغفير عويس أبو المعاطي: الله يخيّبك يا شيخ، وهو واقف قدامه زِنْهار: عجايب ياولاد، يعني كانت تايْهة وجِيتْها. وفزّ فيه لجّمه: ياواد اتلطّ كده، وفُضّها سِيرة، هو داء فيكم، ولّا يعني داء؟ حُطّ ياواد في عينيك حَصْوة ملح واسكتْ سكْت. . !

أما عمدتنا الطيب المطاوع البطين الذي يحب الراحة والدعة فكأنه لم يسمع ولم ير. ولم يتكلم.

أما أحجار كومة الهدم فقد تُركت في مكانها. سوّى العيال ـ والكبار ـ بمجرد مشيهم على الأنقاض طريقاً ضيقاً فوقها يعبرون منه السكة السدّ. ورأيت حميدة البَرْصَا، مرَّة، تمسك بالحِجارة، بجذاذات أصابعها المتآكلة، تغطيها بطرف الطرحة، تتشبَّث بأطرافها، وهي تتسلق رخام الهَدَد الذي أصبح ناعماً من وطء الأقدام، ثم تنزلق، كلها، وهي نازلة. وخيل إليَّ أنني سمعت أنينها، مواءها، شكاتَها المكتومة.

رامية الرمح من عينيك اللتين لا تغيبان في السكّة الملتوية التي فيها خَجَرة واحدة وبقايا قطة ماتت من أيام طوال خصيبة ومحرومة من الإثمار أبداً مبحرة إلى الشمال على سطوح المياه الساجية هل أنتِ السمكة أم الصيّاد هل أنتِ الجنية المختبئة أم شَيَّالة الحطب والأَسِيَّة هائمة وعارية تحت ثوبك الواحد الممزَّق المرقَّع الذي أسقطه حرّ الخَمَاسين جسدكِ القائم من موته رشقته الرمال الدقيقة وكسته بالنُقَر وفاكهة الوهاد وحجارة الروابي مثل ترنيمة قبطية قديمة بَجْعتي السوداء المقتولة بيدي حوريّة الحَكَايا والحواديث تحت مصباح الكوز مقطوع الحافّة فتيلته مغموسة في الزيت السخن نيْمفيَّة النيل معشوقة موسيقى السطوع هل يمنحك النور أبداً كفّارته هل يحمل عنك ثقل خطيئتك التي لا إثم فيها بل هي الطُهر والبُرء معاً ترقصين رقصة دراويش الذكْر رقصة فراشات الغيط رقصة الأوزّة المذبوحة تحت النخلة في حوش ستّي أماليا ترقصين دون صوت على إيقاعات الفيضان وهي تهدر وتدمدم.

رائحة الماء في بِرْكة الغَسَق التي تملأ الجرن فيها عطن خفيف وخصوبة كامنة تترقرق على سطحها مويجات الحنين. الغربان تنعق فجأة آتية في سربٍ متلاحق الضربات من ناحية شجر السنط والجميّز على جسر النيل المترب الخالي الآن.

عندما نزلت من التاكسي البيجو بالنَفَر كان الجسر الوطيء الآن أسود الإسفلت، تتقاطر عليه سيارات المرسيدس والفولفو ونصر، ولوريّات البضاعة محمّلة بالطوب الأحمر وشوالات الإسمنت وكرتونات المُبيدات؛ لم أجد للسراية القديمة أثراً، جُعلت محلها بيوت خرسانية ذات طوابق ثلاثة ولم يطاوعني قلبي أن أدخل الكنيسة، بدت حيطانها رثة نشعت المياه عليها وتركت عليها خطوطاً متعرجة قاتمة اللون؛ لم أذهب إلى بوبيللو؛ خالتي وديدة، فلاحة عجوزاً كلها ترحيب باللهجة الفلاحي وبالعبارات الريفية الجاهزة لكل مناسبة، صنعت لي غداء من البيض المقلي والجبنة القريش، جئت على سهوة دون إخطار، ونظر إليّ عمُي فانوس بعينين يزرّهما ويضيّقهما، باهتتين الآن من الشيخوخة، ويقول لي هوّدا يصح ياأستاذ؟ مش تجول كنا طلعنا نجابلك ع المحطة. جيت بالتاكسي؟ يا خبر على كلّ حال أنا زعلان منك كان لازم تجول لكن أهي جُمة، بصلة المحِب إيه؟ خروف... يا أهلاً وسهلاً، ولم يأكل معي، كانوا قد تغدوا من الصبح، والله زمان والله زمان يا أستاذ، سعدية تجوزت وعايشة مع ابن عمها، ابن برسوم، فاكْرُه، في كفر الدوّار. يا أُنسية تعالي سلّمي على ابن خالتك، الولاد، ماانت عارف، واحد في الجيش واتنين في بلاد برّه، ربّنا يحرسهم ويرجعهم بالسلامة.

لم أر دخان الأفران ولا الكوانين يصعد في الهواء ينقّيه الشجر، واشتكى لي عمّي فانوس وقال إنّ الفِلاحة مضروبة وأنّها مهنة منقرضة، يوميّة الفلّاح الشاطر الآن بالشيء الفلاني، وسمعت وشيش التلفزيون والفيديو وظَلّ معي حتى قبيل الفجر. أعمدة الكهرباء الطويلة الجديدة ظلت أيضاً مشتعلة المصابيح طول الليل حتى الضحى العالي ثاني يوم تُلقي دوائر ضوئها فوق حلقات منعقدة قاعدة القرفصاء على الأرض من الشبان والرجّالة الراجعين من العراق أو ليبيا أو الكويت الصاحين من نوم العوافي يفركون عيونهم الوخمة رؤوسهم حليقة ليس فيها إلا خيالات أفلام العواطف المتسايلة الخام وأشباح ضربات الكاراتيه والكاوْبُوي وتقلصات الأجسام الأنثوية والرجولية البلاستيكية المصنوعة تتخبّط وتنزلق في اصطدامات اليورنو المصقولة وانسياباتها الخالية من أي شَبَقٍ بل من أية بذاءةٍ حقيقية لفرط إتقانها ولمعانها ولم أر النسوان ينزلن النيل للمسقى أو الغسيل؛ عندنا الآن مواسير المياه الجارية؛ ولا يذبحن الزَفَر عندنا؛ الآن فراخ الجمعية واللحم المجمَّد؛ والمخبز الآلي يفتح كل يوم ساعتين ثلاثة. أما من فاته السَفَر وحط عليه الغُلْب فمُنْزَوٍ في خربات البيوت القديمة المتداعية وفي قلبه دم أسود.

لكن الغِربان مازالت تأتي إليَّ بخبزِ أشواقٍ غير متخمِّر قلت الغربان رسل نوح بلا عودة عيال المسيح الشموع قائمة متقدة تحت رفرفة أجنحتها السوداء تحت القبة الشاهقة تقاوم صغرها وهشاشة اشتعالها ونحول جسومها هادئة الطيران قلبها فتيلة تعرف أنها ذاهبة للاحتراق لا محالة، ولا تهتمّ، ليس لها فخر في ذاتها وإن كانت

كبرياؤها لا تنطفئُ ترفع نورها بـاستماتـة إلى سماء معتمـة على عتبـات الحصن الذي يقطنـه المحبوب السيـد الإله غـير مذكّـر وغير مؤنَّث في شرقيّـة قدسٍ الأقـداس حصني خاوٍ الآن قـد انهدم سـوره وغـادرتـه الحبيبة ـ التي قالت إنها حبيبة ـ ذوْب الشموع الآن مهدور.

أمعتم، لا نور لي في ذاتي؟
أنتِ احتياج للقلب
لا رضى له ولا إرضاء
احتياج
لا ينتهي.

٦ ـ الأيقونة

استطاع أبونا أندراوس أن يستخرج أيقونـة قديمـة من بين أنقـاض حائط الكنيسة القِبْلي المهدوم، قال.

لم تطاوعه يداه أن يرمي بها في قلب النار التي أوقـدها بنفسـه، في حـوش الكنيسة الـترابي، من حطب القـطن النظيف المسوّى وفـروع شجرة النبق العريضة التي تظلل الكنيسـة وتمتد فـوق سور السرايـة، قطعها له صبيان القرية، وتركوها تجفّ وتصلب ويتحول ورقها النضر إلى يُبسٍ له خشخشة وحفيف يحكّ العصب، قال لي حرصت بنفسي أن أتأكد، لا يكون في هذه النار قُرْص جلة ولا ورقة جرنال ولا شيء دنس.

ألقى في النار الصور الورق الملوّنة القديمة بإطاراتها المكسورة بـاهتة الوَقْع، ونسخاً من الأناجيل لم تعد تُقرأ بعد أن تهشمت صفحاتها من سقوط الحجارة وعمود الرخام الثقيل وخشب الخزانة القـديمة المـطعّمة بالعاج ـ خسارة! ـ لم يبقَ منها إلاّ شظايا وفتات؛ لكنّه استنقذ كتب الترانيم الموشومة بصورة البطريرك كيرلس الخامس الكبير أبي الإصلاح، ونسخة ثمينة من السِنْكسار، والأيقونة.

قال، تعالَ للكنيسة غداً الساعة أربعة، بعد القدّاس.

فاضل فيهـا أجزاء سليمـة تقريبـاً، الأجزاء الأخـرى راحت تعالَ شُفها، خذ ما يصلح لك منها إذا أحببت. ناقصـة صحيح لكن فيهـا ما يفيد.

أخذت منها بضع ملازم مفكوكة من تاريخ الأمة القبطية وكنيستها تأليف السيدة أ. ل. بتشر الإنجليزية، في الصفحة الأولى قرأت أن ثمن جميع المجلدات أربعون قرشاً صاغاً طُبِع على نفقة صاحب جريدة مصر سنة ١٩٠٠ افرنكية الموافقة سنة ١٦١٦؛ وبضع صفحات من «رتبة الاكليل الجليل حسب ترتيب الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المرقسية». . . على نفقه القمص فيلوثاؤس المقاري مطبعة القديس مكاريوس بمصر القديمة؛ ونصف كتاب «اللؤلؤة البهية في التراتيل الروحية والمدائح المتداولة في كنائس الكرازة المرقسية» الطبعة الثامنة سنة ١٦٣٧ للشهداء موافقة ٧٤١٣ للخليقة و ١٩١٣ للتجسّد ميلادية شرقية على حساب الأقباط والأحباش و ١٩٢١ ميلادية غربية و ١٣٣٩ للهجرية؛ من أجل هذه الصفحة وحدها أسعدني أن آخذ نصف الكتاب الباقي بعد أن مزقته انهيارات الأحجار.

تركتُ أبونا أندراوس يلّم بحرص رماد موقدته، في طبق جديدٍ من الفخار خشن السطح مسامه مازالت مفتوحة ونيّئة اللون.

سوف تجرفها المياه الجارية.

عمي جورجي عريف الكنيسة كان واقفاً على الباب، لا يدخل.

عندما عرف وقع خطوي قال لي مساء الخير يا سِيدْنا لَفَنْدي. على مِهلك. إوع تندبّ زيّ عمك جورجي خلكّ دايماً على مهلك.

قلت في سرّي: نعمة الاندفاع دون رويّة.

كان خيالي قد اشتعل بزياراته الخفية المعلنة في آن للست جِنينة.

عازف القيثار الأعمى الذي يتخذ مكانه على شمال الهيكل.

اللصّ الشهال.

خلع طربوشه عن شعر رأسه الجعْد الخشن القـويّ، طوَّقَ عنقـه بعقدٍ من الريحان الطازه والعِتْر البلدي.

يضرب بالمثلث النحاس والصنوج قرقعة الموسيقى وترنان الجلجلة في الحَرَم القدسيّ ترنيم القرد العليم تعشير البقرة حتحـور تحت النبقة العـظيمة الثـور الفحل يثب مـرة ويسقط عنهـا ثم مـرّة أخـرى التفّ الصبية والرجال الثور ممسـوك بحبل ممـدود مرخيّ ضُربت تحت قـرنيه عصـابـة من قـماش ملّون خشن فيـه البشنـين الـذي شحبت أوراقـه الناعمة وقـامت زهرتـه الشرسة شبق اليـدين وحدهمـا عينان ليس إلا ضربة الجسم الجسيم الحاد المندلع يحيط بعجينة أنثويـة مُرَحِّبـة تفيض عن مـلء القبضتين تغـوص تحت السـاقـين المهـاجمتـين المـرأة الهـائلة الأنحـاء الهارب المتهـك تنهل تهـاليله بأوتـار مجده الـلانهائية متـوتـرة مقـطوعة تـأخذ إلى حضنهـا العاجـزين والمعطوبـين والمعلولـين لا عن شفقةٍ فليس عندها شفقة بل ضراوة الشَبَق ولهفة الاستغواء والإرضاء بـل الإشباع وشهيق الامتـلاء وكأنني سمعت في عتمـة صنـع الحب ـ أُشـارك فيهـا ـ أنـين الحب وزحـير الحب أُووه حـاسِبْ إوِعَ يـاراجـل والقرار السحيق يابِذْعك يامَرَة ياجبايرك كِفاياك لَوَعْ ياسِتّي يتلمس لها مجـرى الحب في جسم الهُـولـة المعـطاء إذ انـدلعت بهـا نـار الشهـوة والتحقيق ويسقطان في الجب.

وكأنما قيل:

لا تدع قلبك يذبل

لَا تتبع إلا وصايا شهوتك
ضع تيجان النيلوفر على رأسك
طوِّقْ بأزهار البشنين عنقَ أختك
قبل أن تصل ـ لامحالة ـ إلى شاطىء الصمت.

في العتمة التي سقطتْ على الصحن الخاوي الفسيح، بعد الظهر الغائم المشوب دخلتُ.

كان صحن الكنيسة موحشاً.

لا تكاد تنيره الشموع القليلة وهي تشتعل بصمت تحت الأعمدة الرخامية العاجية اللون. خطر لي أنها أُخذت من معبد بوبيللو ربما من أحقاب بعيدة.

رائحة اشتعال الشمع، حس الرهبة في هذا الفراغ المفاجىء الذي يبدو لي بدائياً. خشبياً، يسانده رخام قديم.

وكأنني في الصمت المحيق أسمع همهمة مكتومة لا أتبين مصدرها، وكأنه بكاء مدفون يصدر عن تربة مسدودة، نهنهة رجولية مهزومة لا أمل فيها، تُنتزع من روح لا تجد عزاء ولا راحة، أو هكذا ظننت.

ليه بس يارِبّ، ليه؟ داني عمري ما جُلت لأه لبشارتك يارب المجد. عمري ماودّرْت اللوميّة في البحر الكبير ولا في الرَيّاح والترع والمساجي. عمري ما حُشْت الحليب من فُمّ الرضيع اللّبّاني سَوَا عِجْل ولا ولد أو حتى بتّ من صُلب راجل وبطن مَرَة، عمري ما وجفّت اللوميّة الجارية عمري ماصدّيت حدّ عن نار الكانون عن

وَجِيد الفرن ليل ولا نهار على حدٍ سوا، عمري مازعّيت في حدّ نصراني ولاّ مسلم على حدٍ سَوَا، عمري ماطفيت شمعة مِنْجادة يارب، عمري ماحشّيت زرعة مرعرعة بالغصب من أرض جار ولاّ خصيم على حدٍ سَوَا، عمري ماعُنت الشر في جَلْبي يارب طَبْ ليه بجى؟ ليه؟

ليه تحشّ جَلْبى؟ ليه؟

رأيت الأيقونة التي قال أبونا أندراوس إنه إخرجها من بين أحجار الهدد، قال إن زجاجها قد سقط عنها، كله، مرة واحدة، كأن يداً قوية باترة نزعته بحدوده الواضحة القاطعة، قال.

رأيت وجه المسيح، قائماً، عيناه مغمضتان، تجاعيدُ عَبْر العصور غائرة في صفحةِ الأيقونة الخشبية المعتمة، تتخايل على سطحها الزيتيّ المسودّ أشعةُ الشموع الصغيرة مهتزة نيرانها تحتها، التفّ إكليل الشوك غامض المعالم برأسه المعذّب بأثقال لا قِبلَ بها.

كان يسوع يبكي بكاء جافاً قاحلاً لاريّ له. دون دموع، دون صوت تقريباً.

رفع رأسه إلى أعلى. وجهه في الأيقونة المهشّمة ينظر إلى وجهه الآخر بين يديه جاثياً على بلاط الكنيسة العاري، لفّ رأسه بكوفية ترابية، داكنة شائكة الملمس، جلابيته ساقطة على الكتفين العظميّتين، هيكله تحت القماش العتيق مشدود، حتى في جثوّه منصوب كأنه مازال مصلوباً ليس فيه انخزال ولا تهدُّل، حتى في هذا النشيج الذي يصعد ببطء، دون تفجّر، عن طبقةٍ خفية تحت

الأرض، من مضض الشقوة وإيجاعها، يسوع في عذابه الأرضيّ، ليس في مجده، دموعه تسقط من الأيقونة، قطرة قطرة، على بلاط الكنيسة.

رأيت يده الممدودة الموشومة بالصليب الأخضر المورق، يده المثقوبة بآثار المسامير الكبار، تمتد بحنوٍّ ومهابة يضعها على الرأس المرفوع إليه.

كان الوجه المظلم مقدَّداً جافاً متقبِّضاً بعذاباتٍ لن يعرفها أحد أبداً.

فلّاح الطرّانة القراري، القبطيّ الذي نسيه العالم، مضروباً، من هضّ الأيام بلا هوادة. ليست الموازاة بل الانصهار. الرأس ملفوف باللِبْدة وفوقها الكوفيّة القاتمة، تنزل منه أخاديد الكدح وهموم القلب شقوقاً سوداء. الأيقونة المستنقذة من بين الأنقاض.

في داخلي أَكُتُّ وأفورُ من الغضب
ليس من الولاء. ليس من التقديس.

أتستمر هذه الأيقونة مدفونة، نابضة بالألم، مشققة، خفيضة، ولكنها لا تُقْهر؟ أم تنحسر، تغيض، لا يبقى إلا نسيج الخشب الأسود، منكوراً: هل يتقدس من تمتد إليه اليد المسحوقة العظام، تقطر بالدم، قطراتٍ مدورة، كبيرة، منفصلة، لها رنّة مكتومة على البلاط العاري، قطرة وراء قطرة؟

هل يمتلئ حياة، وبركة، أم يضربه القحط والصمم؟

هل نسمع معه الكلمة المحْيِية؟ ما هي؟ أم يرين علينا العمى أمام

بشارته المرسومة بالِتْمپرا من يدٍ تعرف كيف تعزق التربة بالفأس أكثر مما تعرف كيف تمزج صَفَار البيض بنشوةِ القلب السكران؟

ليس الوجه فقط.

بل الجسم الضاوي العنيد كله، متكرراً بلا انتهاء على هذه الأرض التي تتكرر فيها البشارات، واحدة إثر الأخرى، مُحيية، بلا نهاية، وبلا تحقُّق.

تراتيل الهارب وصدْح الناي وإنشاد الصنوج وترداد الذِكْر وخمر الدراويش وسقسقة المنحوتات المفهافة وخشخشة علب السافو والرابسو والصوابين وصخب إعلانات التلفزيون جارحة وبذيئة ومتذبذبة الكهربات وكراسي التخت حول هزات متلاحقة بطن راقصة تحفُّها مواسير مصابيح النايلون وأنابيب الفوسفور والفلورسنت الرفيعة حمراء وزرقاء منعكسة على مياه جامدة في برك الغطْس المعقَّمة بالكلور حجارة العصور الحديثة أيضاً تسقط في لغة غير متماسكة ومفضوحة الشفرات ضربات الخشب وصرخات فتيات مصعوقات بالثمل وقرع الطبل وترجيع الكروان بلا توقف في دفق الضوء البدريّ شقه ساطع وشقه دامس كل الثيولوجيات كل الأيديولوجيات صيحات ببغاء ثاقبة وغضارة زروع خشنة صبّارات هائلة ممدودة الأذرع أخطبوطات شائلة متلهفة للاحتواء والإماتة في حضن عشق لا عورة فيه ثقب السرّة في قلب بطن ناعمة عجينيّة اللون والملمس سَمَكة سابحة عين ثاقبة ذهبية مسفوحة بلا غمض سلالم حديدية صدئة نضبت كهرباؤها تنزل منها إلى سرّة محطة الرمل تحت الأرض وروائح الطماطم والبامية والفلفل الأخضر الوارم خِصيّ

مصنوعةً عطِنةً قليلاً نفْث اللحم الأشلاء المثلوجة تدينك بلا طعن من خطاطيف مثلثة الأسنان تغوص في لحم البحر تنبثق على جانبيها أزهار حمراء صغيرة ناضرة ورقيقة هشة عليها ندى الدم وقطرات الدمع المدورة على قُبّتَيْ الثديين الصغيرتين وقُبّة البطن الكبيرة وجُوه الأيقونات وجوه مساجين طره وأبو زعبل وأقباء المباحث وسراديب كاركالا والجُبُّ المعتم تحت أرضية فاس دمشق طليطلة القلعة صنعاء القدس يفوحُ بنتن الجسم المعلق اليدين والرجلين بكلّابات الحديد بصنان البول وحرافة البعْر البشريّ المتصلب المتراكم يسقط عليه الخُرْء الجديد لا تنفكّ الأصفاد إلا لفتحةِ القبر بلا نُصُب ولا اسم ولا شواهد فاتحة الكتاب من قلوبٍ رحيمة وأبانا الذي في السماوات مُتَمْتَمَةً حِرْصاً ألّا يسمعها الكُردينالات الحُمر وألف ألف وجه مضروب من غور الأزمان إلى لانهايات الأفق متزاحمة بنفس المقاس سوداء فيها خطوط رمادية وعيون مفتوحة مسفوكة بلا نطق ولا شهادة الطرق الإسفلت الواسعة نظيفة السواد تمرق عليها المرسيدس والفولفو ونصر فيات تحفّ بها هفّة الهواء المسحوب سريع الانطفاء ألف ألف ألف وجه متطابق سقطت عنها كل الأمجاد وكل أكاليل الشوك غبيط السباخ الكَفُوري معكوم عَكْماً مُحْكَماً على جانبيْ الحمار الأملح ضارب اللون إلى شُهْبةٍ مرقّطةٍ آتياً من عند أپوللو العريق مستوفِزاً على الذل والكدّ والعنت بالشَبَق الذي لا يكلّ نحو كلّ أتانٍ قَارّةٍ في الغيط أو مارّةٍ على الطريق.

طِراد الأخيلة، الجري وراء الأوهام.

تنبه جدي ساويرس فجأة أن حُقّ الدخان قد فرغ، فأرسلني آتيه

بحُقٍ جديدٍ من عمي شنودة البقال، كما كان يفعل لما كنا نسكن بيت شارع ١٢ في غيط العنب، بالليل أيضاً. كنّا بعد أذان العشاء، وكان أبونا أندراوس وعمي جورجي وعمي سلوانس كلهم روّحوا. قال لي الحَقْ لحْسَنْ يقفل الدكانة، وكنت أعرف ظلمة أزقّة الطرّانـة بالليـل، كُحْـل، وكان لقلبي وجيف واضـطراب قلت ياواد اجمد عيب ولكن الليل حالك غَطِيس، القمر غائب وحتى السماء بدت مسدودة وثقوب النجوم الدقيقة غير فعّالة، حيطان البيوت واطئة سوداء مهدَّدة، سدّ كلها، ليس فيها كوّة نور.

أتحسس الأرض بقدمي في الحارة الضيقة المتلوية على نفسها أحاذر أن أندبّ فِي روث لينٍ أو أخبط كومة تراب صلبة، أمد يديّ أمامي، وإلى جانبيّ، أستمد من الحيطان المصمتة سنـداً. يجابهني فجـأة جدار يقفـل عليّ السكّـة، فـأدور جنبـه، متلمسـاً. الـطريق لا يخلص، لا ينتهي.

أحسست بجانبي أنفاساً حارة.

عرفتُها.

حضوراً مجسماً، لهفة سُخنة، وكأنني رأيتها في الظلمة المطبقة.

حميدة البَرْصا.

هِي. هِي. ليس عندي أدنى شك.

لكنها ماتت، اختفت. انقضتْ.

الم تَمُتْ؟

رآها المعلم شنودة نفسـه، وحلَفَ. رآها طـافية عـلى مياه النيـل،

منتفخة، طَرْحتها السوداء نصف غارقة في الماء، ومشى بها التيار خارج البلد.

بجانبي.

أنينها الخفيض المليء، خاضعاً ومتوجعاً، متطلباً، مثيراً.

تعرج قليلاً، مازالت، لكن بشرتها ملساء، مصقولة.

وشفتاها على شفتيّ، طريّتين، ناعمتين، رضابهما حلو قليلاً. أصابعها المكتنزة نوعاً ما ممتلئة باللحم الغضّ تمرّ على وجهي، برقةٍ وحنوّ، وهي تقبّلني مازالت، جسدي كله قشعريرة واحدة، وأنا أحتضنها إلى صدري المشعوف.

قالت لي - هل قالت؟ - بصوتٍ خافتٍ جداً واضحٍ مع ذلك وبه نغمة قليلة من السيطرة، وبلّوريّ الجرْس في خفوته الشديد، كأنه همس حميم: ياضنايَ، ياخويا.

قال لي عمي شنودة: ياخبر! خِير ياسِيدنا لَفْندي؟ فيه حاجة؟ دانت وشكّ كركُم وعَرجَك مَرجَك، تعالَ، تعالَ يابْني، كلّ خير؟ طيب. ما فيش حاجه؟ بالكليّة؟ طيب، حُجّ الدخان لجدك ساويرس؟ حاضر يا سِيدي. عَ النوته؟ عَ العين والراس. أمرك وأمر آبا ساويرس يا سِيدي. سلُم لي عليه جَوِي وجُلْ له يخشخش جيبه، جايً لُه في الطاولة مانيش عاتُجه.

قلت لنفسي مَنْ قال إنه وحده في وحشة الظلمة بينما هو يحمل عبء المحبة لا يحس له وزناً، فهو الآن في النور.

قلت لنفسي يا ليت.

قلت لأبونا أندراوس لماذا لم تسمح لامرأته أن تدخل الكنيسة تصلّي معه؟ كان حزيناً جداً، ووحيداً جداً.

لم يكن له اسم.

قال لأنها كانت ولدت بنته تلك التي ماتت منها، بعد أن ولدتْها بسبعة أيام.

قلت الحدأة التي تنقضُّ كلَّ مرة على البرج القديم، تفترس، مرة بعد مرة، بنتَ المركب المضيئة التي تخوض الليل.

قال لأنها لم تتطهّر من دم نفاسها، والكتاب يقول: «إلى المقدس لا تجيءُ حتى تُكمل أيام تطهيرها. إنْ ولدتْ أنثى فلتكن نجسة أسبوعين وستة وستين يوماً، تقيم في دم التطهير، لا تدخل إلا بعدها، ثمانين يوماً وليلة». بعدها فقط ألقي على رأسها صلاةَ التحليل «نسأل ونطلب منك يا محب البشر لكي تتطلع إلى أمَتك حتى يتجدد روح قدسك في أحشائها. حاللْها هذه التي جاءت تشتهي أن تدخل إلى موضع قدسك» حتى أمنا مريم العذراء، وهي التي حبلت من غير دنس الخطيئة، ولدت المسيح من غير لوثة من بابٍ لم يُفَضّ، حتى هي البتول، لم تدخل الهيكل إلا بعد أربعين يوماً، حتى تستحق شركة الأسرار المقدسة.

سألتُ: لماذا أربعين يوماً فقط؟ لأنه يسوع؟

قال بغضب: لا.. لأن يسوع كان ذَكَراً، الأنثى بعد ثمانين يوماً، والذكر أربعين فقط. عقاب لجنس المرأة، ألم تأكل قبل آدم من التفاحة؟ أغوته بالخطيئة الأصلية. ألم يقل لها الرب بالوجع تلدين إلى رَجُلك تنقاد أشواقك وهو يسُود عليك.

مَنْ جمع الريح في حفنتيه؟ مَن صرَّ المياه في ثوب؟

الكـلّ يُنسي ويمضي. لماذا طِـراد الأحلام والجـرْي خلف الأخيلة؟ لماذا، طيب، أُوقِدُ شمعاً سوف يخبو؟ وأوقده بقلبي؟ أو كما قال.

لماذا ـ طيب ـ أحاول أن أغنيّ في وجه الريح، لا صوت لي، ولمـاذا كتبتُ على الرمل في الجزيرة، جنْبَ زَرْعة البطيخ الذي لم يستو بعـد؟ قلت الحسن غش، قلت الجمال باطل، ولم أصدّق ولا لحـظة واحدة. أما دموع المظلومين فتجـري مع الأنهار، دون أدنى أهميـة. أما كـأس الفرح فتتطاير زَبَداً أشقـر في الشمس. والأبراج والصروح تـرابٌ إلى تراب وقلوب الأنبياء مدفونة تحت حماقـات العالم. لمـاذا خراب النفس ولماذا الموت؟ قـالوا مـدينة متهـدمة بـلا أسوار الـرجل الـذي ليس له سلطان عـلى روحـه. روحي هي السلطان. جسـدي هـو السلطان. وحبي وشهـوتي ولهفتي للمستحيـل خـطوط عـلى رمـل الشطّ، الحب المستحيـل العـدل المستحيـــل. لكني لا أني ـ لا أني ـ أرسم الخطّ تلو الخطّ. لا أني أتوق للشفاهِ التي كسِلْكةٍ من القرمز والعيون التي كالحمام. الجمال وليمتي وأنا منهوم. جراح المحبة أمينة، صحيح، ولكن لا شفاء لها، لا ترمّ. وارحمتا للذين يتقلبون على الفراش، هل الرحمة ثورةُ الحكيم أم عبث وخور؟ أتسمع الأنين؟ ماذا يهمّ؟ أما سئمتِ من فيض الروح، من البوح العقيم؟

أصـــوات النحيب تضرب أســـوار الـــزمن، وتحجب الشمس عن الخَلق، أشعار الرثاء فوق سماط الحزن الـذي تُقدم عليـه ألف زبديّـة من العدس الأسود والعـدس المصفّى والمُلوحات والمخلّلات والألبـان

الطازجة وعسل النحل، والخبـز والفطير المصنـوع من الحلبة والشعـير ارمدٌ لونه في البكاء والإنشاد وطلب الغفران من الإثم العـظيم بذبـح الوز والبط والفراخ والتوسعة على الغلابة والعيال والـدخول في خيمـة الخمـر والحنين إلى رؤيـة الباب وسكب السكّـر المذوَّب ورشّ السكّـر المـذرور ورشْق النُقْل وغـرْس الجـوز واللوز وفـرْش الفـول السـوداني المقشّر اللذيذ على البليلة العاشوراء الذئب يرفع رأسه إلى القمر البدر ويعوي إلى إياح تحوتي رسول الآلهة وحامل اللوح المحفوظ يوم المعرفة يوم التقى آدم وحواء ورأيا أنهما عاريان يوم خرج نوح من فلكه الكبير بعد رسالة الغربان يوم استشهد إمام العاشقين.

عندما خرجت من المعتقلات بعد ذلك فيما يبدو لي بأحقاب طويلة عرفت أن جدي ساويرس قـد مات في الـطرّانة ودفنـوه في بوبيللو، لم أكن قد رأيته منـذ سنوات، كـدت أنسى وجهه العـريق الذي لـوّحته وصوّحته شموس أيامٍ لا عداد لها وهو يرقب بصبرٍ سنارة الصيـد على الملاّحة في اسكندرية وعلى الريّاح البحيري في الطرّانة.

أيام مجده كانت قد ولّت من زمن وعاد للطرّانة مكسوراً كما ينكسر الرجال.

فهل كسرته أيضاً زيجة خـالتي سارة ـ لم أحضرهـا ولم أكد أعـرف بها ـ من عاملٍ في فابريكة الغـزل في كرمـوز، اسمه جـرجس رزق ـ سمعت أنه كان صاحب كيف ولما اعترضت خالتي سارة على قعـدات الحشيش في غرفتهم الواحـدة في غبريـال، ضربها مـرةً بالقلّة، وفتـح رأسهـا، وراحت المستشفى الميري وعملت لـه المحضر والـذي منـه،

وغضبت منه إلى بيت أخيها الصغير خال سوريال وراح يصالحها ويستغفرها وبكى بالدموع وعادت إليه وضربها مرة أخرى وأخرى، كلما طيّرت من رأسه الشويّتين بالنكد الذي أصبحت تجيده، وكان لا شك يحبها جداً، بطريقته، لذلك كان يضربها ويصيبها كل مرة إصابة جسيمة وتدخّلتْ الكنيسة وأخذت عليه تعهداً على يد القسيس ولكنه ظل يضربها ويغاضبها ويصالحها حتى مات مبكراً بعد أن خلّف منها ثلاث بنات وولداً واحداً.

وبعد موت جرجس رزق سافرت خالتي سارة إلى أسيوط بعد أن كانت عرفت سِكّة الإرساليات البروتستنيّة والكنائس الإنجيلية وكأنما نفضت يدها من الأرثوذكس جميعاً، استدعاها وأغواها البروتستانت وأدخلوا أولادها مدارسهم وأحسنوا إليها فعرفت خدمة الله وحفظت الكتاب ورطانة الدعوة والعزاء في الرب وإذا بها واعظة مبشرة تجوب البلد من بور سعيد إلى أسوان تسافر وليس في يدها إلا الكتاب، وحقيبة يد فيها فستان أسود آخر وغيار واحد. لم تعد تلبس إلا الأسود ولا زينة لها إلا عقد جلدي في آخره صليب خشبي كبير ليس زينة بقدر ما هو استعلان، وكان المسيح يكلمها ويدعوها للسفر إلى دمياط، أو قوص، أو منوف وهي لا تعرف أحداً فيها فتسافر على الفور، بالقطار أو الأتوبيس أو التاكسي بالنَفَر وتسأل عن المسيحيين وتدخل بيوتهم وتعظهم وتكلمهم بالكتاب وتبيت في بيت أحدهم ولا تتورع عن أن تؤنب ربّ البيت أو أحدَ أهلِه إذا دخّن سيجارة أو فتح التلفزيون. تحيا حياة الرسل وتعمل أعمالهم.

ثم بدأ المسيح يدعوها أن تذهب إلى بيروت أو بغداد أو عمان فلا

تتردد لحظة تُدبِّر ثمن الطائرة وتذهب ليس معها إلا حقيبة يدها تلك والكتاب. قلت لها مرّة، فيما بعد: لكنْ خالتي سارة هل يأتيك في الحلم ويقول لك؟

قالت لا، وأنا صاحية، يكلمني كما تكلمني أنت الآن، أعرف صوته. المجد لله، الشيطان يجرّبني أيضاً، ويكلمني بصوت يسوع، لكني أعرفه على الفور، وأخذله دون تفكير.

وفي غمار لجج حياتها التي خاضتها بسلامٍ روحيٍّ على اصطخاب أمواجها ماتت بناتها الثلاث بعد أن كبرنْ، وتزوجتْ اثنتان منهن وتركا أحفادها عند البروتستانت، وهاجر ابنها الأصغر، روماني، واستقر به الرحيل في البرازيل، وكان صغير الجسم وكله حيوية وعينان مليئتان بالخيال، وكتب لي بطاقتين بريديتين، ثلاثة، وزارني منذ قريب وحكى له حكايات عن مزارع وهاسِيِنْدات شاسعة يقطعها على صهوات خيول مطهمة وعن ڤانديتات دموية بينه وبين عائلات إقطاعيّة عريقة يُضرب فيها بالرصاص، وتُحضّر السموم وتُسكَب في الكؤوس وتُسخَّر الجنّ وتُستحضر الأرواح الشريرة؛ وهو يهزم كل المؤامرات؛ يقولها بلهجة من يروي وقائع يومية عابرة بالصوت نفسه الذي يقول به إنه اشترى أناناس من السوبر ماركت في ريو دي جانيرو بما يساوي خمسة قروش أو أقل وإنه ركب تاكسي إلى ضيعة الرجل الذي كانت بنته تحبه ـ هو روماني ـ وتتحدى أهلها وأهل خطيبها من أجله، وتحبط كل الشياطين التي تحيق به في نومه، وكان مقتنعاً جداً وبسيطاً جداً وهو يحكي لي ذلك كله لأنه كان مقتنعاً به ويعرف كثيراً من حِيَل السحر الأسود. لكن ذلك كله كان من عهد

قريب، وكان جدي ساويرس الذي لم يره روماني قط قد مات قبل أن يموت جرجس رزق زوج ابنته التي كان يؤثرها، فهل انكسر قلبه لأنه رفض زواجها من فانوس الرجل الوحيد الذي كان قد أحبها؟ لكنه ظل ـ حتى لحظة موته ـ قائم العود ورافع العينين لم يخفضهما لأحد قط ـ قال لي عمي فانوس. وفي غمرة اضطراباتي وأنا أبحث عن لقمة العيش وأقف مسحوراً أمام أشواق الحب وإطباق اليأس، لم أكد أُعير خبر موته اهتماماً.

الآن أعود فأرى رأي العين أيقونةَ يوسف النجار، أم هو القديس مرقس أم بطرك قديم، استنقذها أبونا أندراوس، من الهَدَد، أم حملها ملاكان طائران يُحلّقان في أصقاع جسمي، من بين الحجارة المنهارة المتراكمة، وقد اسودّت معالم الوجه العجوز الذي مازالت روحي تستضيءُ بقتامته في قلب إطارها البيضاوي قديم الخشب ضرب فيه السوس ونخرب فيه القِدَم، مشقّق تعرّجت فيه خطوط دقيقة غائرة. على الأرض، بجانب الفجوة المفتوحة في الحائط القِبْلي، يسقط عليها نور جارح من نهار مقيم ليس له مساء. شقوقَ الجسم العاري المطحون بعذاباته غير المهمّة.

قالت لي أمي إنه بعد موته، وأنا في معتقل الطور، راحت للطرانة، يوم النُصّ، في منتصف الصوم الكبير يعني قالت لي، لتطلع التُرَب.

عندما وصلوا إلى بوبيللو، وبدأت البنت الفلاحة التي تشتغل في بيت ستي أماليا توزع الرحمة والنور، قراقيش وبلح إبريمي، على عيال

الفلاحين وعميان الطرّانة، نصارى ومسلمين، تسللت بينهم بتّ بَرْصا، باستكانةٍ وصمت، فأعطتها البتّ الفلاحة نصيباً من البتّاو السخن من خبيز الفَجرْ وكبشة تمر أكثر من الآخرين قالت لي أمي هل تذكر حميدة البَرْصا؟

كان جدي ساويرس واقفاً. معه عصاه المعقوفة اليد المصنوعة من خشب الجوز اللامع، على رأس تُربته المبنية من الطوب الأحمر المطليّ بالأبيض، ولها قبة صغيرة، قالت أمي، وكان هادىء الوجه ينظر إليهم بنوع من الحنوّ الجاد. هبّت إليه ستي أماليا، ملهوفة، لعلها كانت تريد أن تضمّه إليها للمرة الأخيرة، ربما، قالت أمي إنهم كلهم سمعوه يقول بصوت واضح، له رنين: مكانك يامّ يونان. ماتهوّبيش يَمِيّ. لسّه الأوان يا أماليا لسّه الأوان.

ثم ذهب.

الأيقونة الواحدة المتكررة. إنجيل مَرْئيٌّ، آلامه كِسَفٌ يرين عليها الظلام وينجاب ثم يطبق من جديد. نورها مطلق أرفضه.

شقوق الخشب العاري، شقوق الجسم المسحوق غائر بالتعاسة. سئمتُ السياحةَ في الأرض وفي المساء. إلام أوْبتي؟

أسياحةٌ متصلة في أصقاع الحلم والحنين، في أغوار الداخل ووهاده ونجاده الصلدة؟

أم تثوخ أقدامي في غمار قلبي غير الواضحة؟

الأيقونة في الصمت تهتز تتخايل لي فوق شمعة واحدة. وجهه العجوز فيه بقعة سوداء من حَرْقٍ قديم، ومخدّد بالتجاعيد. ابيضّ

الآن ونوّر بالمحبة. ستي اليصابات أمّ يوحنا ستي أماليا أم يونان طالما وجدتُ في صدرها الذابل حناناً خاصاً لم أجده في صدر امرأة أخرى.

هل ينسى هذا الطفل الصبي الكهل ممزق الجسم والروح، حتى الآن، رغيفَ البتّاو الصغير والمدوّر الخارج لتوّه من الفرن، فوح رائحته النفاذة الشهية من دقيق الذرة والحِلبة، مرشوش بحبة البَركة الدقيقة السوداء، وهي تفرش له وجه الرغيف المضرّج الطريّ بطبقةٍ من الزبد طازجة وكاملة تسيح وتمتزج بالخبز الذي يلمع الآن ومايزال يستطعم مذاقه ونكهته حتى الآن. هل ينسى حضنها الضيق الذي لم يجد قط أكثر منه دفئاً ولا نعومة، دموعة التي لم يملك أن يحبسها، وهي فقط التي تُربِّت بيدها الحازمة الحانية على رأسه، برفق، بصمت. هل ينسى دعواتها يجعلْ لك في كل خطوة سلامة ويحبِّب فيك خَلْقُه يا بن بنتي، يسوع يباركْك، العدرا تحرسك في كل سكة. وهل ينسى كيف كانت تحكم بصرامةِ المحبة وسطوتها بيتَ غيط العنب الذي يعجّ بأخواله الثلاثة يونان وناثان وسوريال وزوجتيْ خاله إستر ومارية، وخالتيه وديدة وسارة، قبل زواجهما، وأمه التي استقلت بجانبٍ من البيت مع أبيه ذي الكِبْر ولِينِ القلب معاً، وأخواته البناتُ، تسيّر هذا البيت بحكمة ونفاذ، الكَلمة كلمتها والشورة شورتها. وهل ينسى كيف انتهت حياتها في شقة خالته حنونة في العصافرة. شلّت الآن ساقُها ويدُها ويبس جسمُها الصغير، تزحف بيدٍ ورِجْلٍ من على البلاط لا تقدر أن تُنهِضْ نفسها. وعمّ مقار العبد التنتونْ، زوج خالتي حنونة، هو الذي ينظف جسمها الضاوي وعظامها الهشّة من فضلاتها التي لا تملك الآن أن تتحكم

فيها. كيف نظرتْ إليـه، وهي مكوّمـة على الأرض مـازال في أنقاض جسمها مع ذلك شموخ العزّ القديم، وقد جاء يراها ـ كما عرف فيـما بعد ـ لآخر مرة. حدقت إليه بعينيها الغائرتين الغائمتين. لم تعرفـه في الأوّل. ظلت تحـدّ النظر إليـه كما يفعـل العجائـز، بتركيـز الرغبـة في المعرفة، دون وصول. ثم أشرق وجهها الجـافّ المغضن مرة واحـدة، وهمست إليه: يسوع يباركك في كل سكّة يا بن بنتي. هذا كل شيء. فقط. ثم انصرفتْ عنـه كأنها نسيتـه، وزحفت ببطء تسحب جسمها إلى ركن في الغرفة الضيقة هو مأواها، في الأخير، فوق هذه الأرض. أين النخلة السـامقـة في حـوش بيت الـطرّانـة الـذي يمـوج بـالأنس والحياة.

كان الولد برسوم أخو عمي فـانوس، قـد قال لي إنـه سمع من أبيـه كيف أن روزة وسـالومـة، مقددتـين الآن ومعقدتـين كعيدان حـطب القطن، كانتا أيام شبابهما في بهاء البدر وجمال الغزلان قلت مستحيـل قال والله هـذا ما قـالوا وأنـه كانت هنـاك حكايـة كبيرة من زمـان عن آبا وهبه، أخي جدي ساويرس. قيـل أن آبا وهبـه هام بهـما معاً حُبـاً، لم يقـدر على أن يقـرّ على أيتهـما، ولا حتى أن يعـرف أيتهـا روزة وأيتهـا سالومة، وقيل إنه في الآخر كان يكلمّ نفسه ثم أخذ يضرب نفسه ثم يحذف الناس والبهائم بالحجارة، والطوب، ويهتف أنا مين؟ طَبْ أنـا مين ياوْلاد؟ قلت أين راح الجَـمال، والبهاء، وهـل يغيض ماء الحيـاة وينشف العـود، هكذا. قـال إن البنت التي كانت تخبـز لهم أيامهـا، وتملأ لهم الزِلَـع من النيل، وتسرح بـالبهـائم عـلى الجسر، وتكسـح الزريبة كانت، كما قالوا، مَـرَة طويلة وسِرْحـة، وحلوة حلاوة يـاواد!

قال إنهم عندما يحكون عنها، ذَكَرَ خَضْرة التي كانت تشتغل عند خالتي روزة وخالتي سالومة، الخالق الناطق كما يحكون، قال إنها اختفت مرة واحدة، مثل خَضْرة، وإن آبا وهبه بعدما ظل يخبط رأسه في الأرض، راكعاً، يهذي ويقول: أنا الحَجّ عليَّ أنا.. أنا اللي عملتها ما فيه حد غِيري أنا، قال إن الكلام انتشر ثم انكتم عن أن اثنين من رِجّالة العِيلة خرجا بالليل من بيت آبا وهبه وجدي ساويرس - كانا عزبين عندئذ - وراحا ناحية بوبيللو. قال إن هناك تربة مسدودة بالطوب الأحمر والإسمنت الإنجليزي ماركة پورتلاند، لم تُفتح قط، ولا يعرف أحد مَنْ فيها. قال دول أهلنا ياواد زمانْ، كانوا بيعملوا عمايل، بلاوي مِتَلْتِلَة، ولا كثينَ حدّ شامم رِيحَة خالص.

كنت أُودِّع الطرّانة في سرّي.

ظُهرْ يومٍ كان جوُّه خريفياً، سماؤه فيها سحاب أبيض خفيف غائم ومشعّ.

النيل، قبل الدِمِيرة، في مائه خُضرةٌ غنية مليئة، طحالب داكنة تطفو شواشيها معلقة في المياه السارية ببطء، زيتيّة مهتزّة، تلعب بها دوّامات صغيرة وتنشعب بها فروع دقيقة متموجة.

تحت أحجار السراية الرمادية الضخمة التي ترتفع من حافة النيل فجأة، تضربها مياهه الراكدة وتترك في منتصف حيطانها خطوطاً قاتمة لزجة الشكل، تسقط عليها أغصان ملتفة كثيفة من أشجار الجميز والتوت والنبق والمنجه، كان خروف أبيض، أعجف، صغير، صوفه مبلول مهْتدل تغسله لمّة من أولاد الفلاحين خلعوا قمصانهم المغبرة

القصيرة ولم يبقوا إلا على لباسات عَبّك متهدّلة ومبلّلة، ملتصقة بأفخاذهم السوداء الناحلة وأعضائهم الصغيرة المترجرجة، صدورهم العارية ملساء، مدوّرة القفص، مخسوفة العظام، لكن وجوههم متوفّزة بالحيوية، والشقاوة، تهضّمتْ من الجوع المستمر غير المدرك قسماتُهم السمراء الوسيمة، يتصايحون ويشتمون الأمهات والآباء بالفصيح وبمرح ومَهْيَصة لا شائبة فيها.

على السور ألحِفَة قطن وبطّانيات صوف ناصلة وأغطية مرقّعة وفيها بُقَع واضحة المصدر، وعلى سقوف البيوت الطينية المتضامّة، تحت جناح السراية، أكوام ورُصص من الجِلّة والحَطَب، حيطانها المبنية من الطوب النيء مدهونة بطلاء أخضر فسدقيّ باهت ومقشّر يبدو تحته الطين اللبِن الخشن كأنه عضويّ، حيّ.

جانبٌ من قفص خشبي مكسور على الأرض.

عشّة الفراخ المعمولة من ألواح خشب رفيعة وأعواد الجريد، تقف فوقها بطةٌ بيضاء مربوطة.

النور الشفاف شائع السطوع، ظلمةٌ مطبقة.

٧ ـ فرج العرباوي

لم يكن بيني وبين عمّي فرح قرابة.

ولكن كل الناس كانت تقول له: عمّي فرح.

كان أعرابياً يجوب ذلك الجانب الذي ألممنا به من الصحراء الغربية بالقرب من الطريق الصحراوي وعلى جانبيه، وكان يحفظ فاتحة الكتاب، ويصلّي الفرض بفرضه.

طويل القامة، قائم العود. ناحل جداً ولكنه صلب لا مكسر له.

ليس عليه إلا قميص باهت البياض ينزل إلى ما تحت الركبتين بقليل، فإذا جلس على الرمل، بانت ركبتاه سوداوين، مدوّرتين، بصابونتين كبيرتين جداً عظامهما بارزة ومتحركة، وبانت لمحة من بضاعته المتدلية، ضخمة سوداء ومازالت فيها فتوة فيما يبدو، وعلى كتفيه لفاعة من القماش العَبَك الباهت نفسه، يلفّها على رأسه ويعتمرها عمامة، يفردها وينصبها على عصاه ذات العُقَد فإذا هي خيمته وظلّته يضع رأسه فقط تحتها تحميه من وقدة الظهر وينام رجلاه في الشمس. موطنه هذا الحرّ هذا التوحّد التام.

كيف أمكن أن يبقى هذا الاعرابي العجوز الذي لم أعرف عنه شيئاً في روحي حياً أكثر من نصف قرن من الزمان؟

أحببته، أنا الصبي في الثالثة عشرة، ربما، ولذلك عرفته.

هذا الحب أبقاه.

كان يأتي من بعيد، على انحراف عن الطريق الصحراوي

الإسفلت، طريق المعاهدة كنا نسميه. يخرج من وراء الرمل، بخطوته المتوثبة شيئاً ما، واسعة الإيقاع، كأنه يأتي من لا مكان. قدماه الحافيتان المفلطحتان تدبّان على الرمل المتلهب كأنه جمل. باطن القدمين غليظ ناشف يمكن أن يدخله المسمار الصغير بسهولة، من غير أن يحس به حتى.

كان يُطبِّب للعمال الذين يشتغلون معنا، بأعشابه الصحراوية وأبازيره التي يصرّها بحرص في مخلاته الغويطة. يشفي، ثاني يوم، على طول، الحروق من أثر الزفت الساخن السايح، يوقف نقحها على الفور؛ جروح المسامير الغائرة في القدمين تلتئم؛ وعنده مراهم ومعاجين عملها وحده لعلاج البواسير، أو البهاق. للمغص أو الإمساك أو الإسهال عنده الأعشاب تنقع وتغلى وتبيّت في ماء الشعير؛ وأذكر مما كان عنده الكزبرة الناشفة وورق الأثل والخولجان وبزور البصل وعنب ديبه ولسان عصفر والعلّيق والحنظل والعنصل والنعناع البري والمرّ الأحمر والمستكة والسواك ونوّار الخيل وأوراق أو لباب الصبّار بأنواعها وشتى أشكالها.

لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يعمل الحجاب ولا يعقد الرَصَد.

كان يسلِّم عليَّ وابتسامة عريضة تفتح وجهه الغَمِق وتنوّره. يده كانت في يدي خشبة حيّة مغطّاة بلحاءٍ مشقّق. ومع ذلك فهي مطواعٌ وحسّاسة قادرة على نقل رسالة حدبٍ وحبٍّ غريب.

يجلس على ركبتيه، دون أن يقع على الرمل، ثابتاً دون أن يتعب أو يهتزّ، أمام الخيمة الكبيرة التي أنام فيها أنا وخالي ناثان، ونضع

فيهـا المؤونة وكـلّ شيء ـ مقرّ قيـادة الترحيلة يعني ـ عـلى مقـربـة من عرض الطريق الصحراوي، جلسة مستريحة مطمئنة، وإن كـانت بينه وبين الأرض مسافـة شبر أو نحـوه، يلفُّ آخر مـا عنده من دخـان في ورقة بافرة رقيقة شفّافة تقريباً مشوبة بالبياض الخفيفٍ، يصنـع لفافـة رقيقة جدًّاً يلصق طـرفها بـطرف لسانـه، ويطلب مني عـود كبـريت، ويدهشني ـ كعادته ـ بأن يحكّه في كعب قدمه، وهو جـالس القرفصـاء مستنـد الآن عـلى قـدم واحـدة، لا يلمس الأرض، ودون أن يفقـد توازنه الحرج لحظة واحدة ـ فيما يبدو لي ـ يشعل رأس الكبريت بشطّة واحـدة في الجلد النـاشف الصلب، ويبتسم عن نـاجـذيـه الكبـيرين الأصفرين ابتسامة طفليّة نوعاً ما ويعرف أنه يبهرني بلعبة غير مألوفة.

يفكّ عقدة المخلاة الكبيرة المعلّقة على كتفه، ببطء، ويستخرج من إحدى الصرر الكثيرة حفنـات من التمر النـاشف، متواضـعٍ عليها، فأعطيه حُقّ الدخان أبو غزالة بورقه الأخضر الـداكن الطريّ، وفـوقه مشط ورق البافرة، من الرفّ الخشبي الذي يحمل بضاعة المؤونة، في باطن الخيمة.

في أوّل صيف ١٩٣٩ قال لي خالي لماذا لا تأتي معي في الـترحيلة؟ تتفسّح وتتفرّج وتكسب لك قرشـين بالمـرّة؟ وكتب لأبي في اسكندريـة فقال له: بها وأكرِم على شرط أن تأخذ بالك منه، الخال والد. قـالت ستّي أمـاليا: إوعَ عليـه يا نـاثان دا بْن الـدلّوعـة دا أمانـة في عينيـك يابْني، فقال لها خالي: يامّه دا راجل.

أمّا لندة فقد سهرت قليلاً عندنـا ـ يعني في بيت جدّي سـاويرس ـ لغاية أذان العشـاء، وعندمـا روّحت ليلتها سلّمت عليهـا باليـد، ولم

تكن تلك عادتي بل أكتفي بـ «مساء الخير» أو «سعيدة» فتردّ بصوت متقطّر بالحلاوة والمشاكسة المستكنْة، بلهجتها الفلاّحي: «بِسْعد مِساك يا خويَ» ليلتها ضغطتُ على يدها قليلاً، أمسكتها أكثر من المعتاد ربّما ثانية واحدة، ونظرت إليّ على غير عادتها نظرة ثقيلة صامتة، متواطئة، فيها اعتراف.

أمّا رحمة فلم تكن قد انتظرت، ولم أغفر لها ذلك قط، لعلّني لم أنسه حتّى الآن. وأسأل نفسي ألم يكن في هذا اعتراف أعمق؟

خالتي وديدة وخالتي سارة وستّي أماليا كنّ صاحيات، من النجمة، عندما استيقظتُ من نوم قلق متقطّع، ودسّتْ خالتي وديدة في جيبي حبّات كراملّة ملفوفة في ورق «زبدة» وهي تقبّلني، فتذكّرت أيّام شارع ١٢ في غيط العنب، وقبّلتني خالتي سارة على فمي قبلة صريحة، وأخذتني ستّي أماليا، في حضنها الجاف الضيّق الذي يفوح برائحة دخان الفرن وحليب الجاموسة، ما أحنّ هذا الحضن وما أطيب ضمّته، وقالت بخفوت كأنها تصلّي في كلّ خطوة سلامة ببركة يسوع وخيّل إليّ أنّني سمعتها تهمس «يا حبيبي». لم أصدّق ما سمعت لأنّها لم تنادني قط من قبلها ولا بعدها بلفظ الحبّ ـ لا هي ولا أمّي ـ كأنّ المناداة به عيب أو ضعف لا يغتفر، عندنا نحن القَبَط الذين على قدّ حالنا. لم أسمعه من امرأة بعد ذلك قط إلاّ ونحن على رأس سلالم عريضة قليلة في مدينتنا الأولى التي تقع في لا مكان، ولا زمن فيها، وسحاب الصبح الشفّاف موسيقيٌّ ومنمنم، عندما قالت لي: «أنا تحت أمرك يا حبيبي». قالتها في لغتي، لغتها.

أمّا في الظهر فقد كانت خالتي روزة وخالتي سالومة قد جاءتا

للبيت، وقالتا لي بصوت واحد تقريباً: رايح وادي النطرون بكـره مع خالك. جـاتْ لك عـلى الطِبْـطَاب يا بن بتّ أمـاليا، مـع السلامـة. وربّتتا على كتفي بأيدٍ حشبيّة.

قلت كان الانتقال بضعة عشر كيلومتراً مايزال سفراً، واغتراباً.

قبل طلوع قرن الشمس كنت على سطح لـوري النقل، واقفـاً مع نحو عشرين رجلاً من أهل الطرّانة والخمامسة والعزبـة، ومنهم عوض عوضين وأخوه حجازي عوضين زوج خضرة التي ودَّعتها ـ في سرّي ـ وداعـاً «رومانسيّـاً» على غـرار شعر إبـراهيم ناجي، هـذه الكعبة كنّـا طائفيها.. ثمَّ رجعت على كلّ حال إلى كعبتي، بعد انتهـاء الترحيلة، في أواخر الصيف.

أمّـا خالي نـاثان فقـد كان مـع السوّاق في الكـابينة. وعـلى المقعـد وأرض الكابينة بضاعة المؤونة الأسبوعيّة للعمّال.

اللوري يشقّ الصحـراء، رمـالاً قـاحلة نـاعمـة حينـاً تعلو وتهبط وصخريّة حيناً، لا علامة ولا أثر، بـين الخطاطبـة شرقاً، والـطرانة، وبـين الرست هـاوس أو شمالـه قليـلاً، من نـاحيـة الغـرب، والمـدقّ الصحراوي تتوه معالمه أحياناً، تنزلق العجلات على رمل مذرور سفَتْه الريح عليه، حتى تجد طريقها مرَّة أخرى عـلى المدقّ المـدكوك من مـرّ العجلات عليه.

ليس من دليل في نور الفجر الشائـع المنسكب عل مهـل، وعندمـا أنـظر خلفي يبهرني، ويُغشي عينيّ، قـرن الشمس الـذي ينبثق ببطء من سطح الرمل، شظيّة ذهبيّة محمرّة، دائريّة تتّسع دائرتها بالتدريج،

حتّى يفلت من حافة الأفق قرص ملتهب كامل الاستدارة.

في فجر يوم الغِطاس كانت أمّي توقظنا حتّى نرى رأس يوحنا المعمدان مقطوعاً بسيف هيرودوت، يدور في طبق الشمس المشتعل، بين يديْ سالومي.

أحسست أنّني وسط أهلي وناسي.

رائحة الرؤوس الحليقة القويّة، وشعر الجسم الحليق، تختلط ببقايا نفح الصابون النابلسي من حُموم أمس، نفثات ما بقي من رائحة النسوان وما انصبّ فيهنّ بالليل تختلط برائحة الحِلْبة وطحين الذرة في البتّاو الذي سرعان ما يجفّ ويصبح عصيّاً على الكسر ما لم يُبلّ بغموس المشّ المترجرج الآن ـ أشمّه واستطعم نكهته ـ في القدور السوداء مدوّرة البطون، مغطّاة بجواليص الطين اليابسة الملفوفة بِخِرَق جلاليب النسوان القديمة الملصّمة، مدفوسة بعناية ومكر في شوالات الزوّادة التي وقف الجدعان يحيطونها بِرُكَبهم في اللوري يحمونها من هزّاته، وهبدات الطريق.

نزلنا، أرجلنا ملخلخة، بعد أن سرنا باللوري في الطريق المسفلت حديثاً بضعة كيلومترات بعد الرست هاوس، ووصلنا للشقّة التي كان على الترحيلة أن توسّعها وتمهّدها وتدعمها بالزلط والرمل ثمّ تفرشها بالزفت والأسفلت.

نصبنا الخيمة الكبيرة على عمق نحو خمسين متراً من حافّة الطريق، كان منار الرست هاوس يبدو لي بعيداً ولكنّه أنيس.

وُضِعتْ لي طاولة خشب من طوايل الفرّانين، فُرِشت عليها بطانيّة

مزدوجة، مطويّة طيَّتين. ولخالي ناثان مثلها تماماً. وكان فيه ترابيزة مرتجلة معمولة من صندوق شاي مقلوب، ورفّ واحد خشب - نصف طاولة فرن منصوب على رصّتين طوب أحمر - وعليه تموين الترحيلة الأسبوعي: علب الدخان أبو غزالة، وسجاير الكوتاريللي المعدن في علبها البيضاء المقوّاة التي تفتح لأعلى، كصناديق الورق المبطّنة، وسجاير الفيل الفَرْط، بالواحدة، في صفيحة مدوّرة، وأكياس الشاي الصغيرة الملصوقة بالكاد، تسرسب من ناحية اللصق حبيبات الشاي مذرورة مفرفطة سوداء لها رائحة، في تلك الأيّام لم يكن فيها ورق ملوخيّة مصبوغ ولا فول سوداني مصحون ومحروق. والسكر المكنة جنبه في علب ورق مستطيلة، مرصوصة في نصف صفيحة مقطوعة وموضوعة بدورها في قعر برميل حديديّ مضلّع مقطوع مملوء بالماء، احتياطاً ودرءاً من النمل الذي كنت أجد طليعته المغامرة، كلّ صباح، غارقة في الماء.

فقط. هذا كلّ شيء.

في داخل الخيمة برميل حديديّ، ملآن بالماء النظيف الرقراق، للشرب. لي ولخالي ناثان فقط. الكوز مربوط بدوبارة متينة في ثقب بالجدار الصفيح المستدير تحت حافّته العلويّة، والبرميل مغطّى بخشبة مربّعة، ماؤه بارد سلسال.

أمّا البراميل الأخرى، خارج الخيمة، فللعمّال، أربعة، خمسة براميل.

ولكن هناك - دائماً - برميل ثالث. من داخل الخيمة، بجانب بابها

أي فتحتها القماشيّة التي تُرفع بحبال صغيرة بالنهار ثمّ ترخى وتثبَّت بخوابير قويّة في الرمل أثناء الليل، وهو مخصَّص لماء الغسيل، والحموم.

كانت شغلتي أن أكتب - على ورق مسطَّر وتحته كربونة أحرص عليها كلّ الحرص، لم يكن هناك غيرها - يوميّة كلّ عامل على حدة، أضرّبها، الأجرة في عدد أيّام الشغل، وأجمع المجموع آخر الجمعة ثمّ أكتب استجرارة الشاي والسكّر والدخان على ورقة أخرى، من غير كربونة، ماذا أخذ على الحساب، بكم، وفي الآخر أطرح، وأسلّم لكلٍّ واحد القِرشين المستحقّين له. واقفين في طابور غير منتظم يدخل الخيمة واحد فقط، ولا يدخل التالي إلاّ بعد خروجه من الفتحة نصف المدلاة، نصف المرفوعة، وخالي ناثان يراجع بعدي، ويسلّمني القروش والملاليم الحمراء اللامعة، كانت اليوميّة ثلاثة تعريفة، والريّس خمسة تعريفة بزّيها، فإذا خسفنا منها استجرارة الشاي والسكّر والدخان يطلع للواحد آخر الجمعة حتّة أم قرشين وثلاثة أربعة ملاليم، أو يمكن ثلاثة أربعة صاغ للبخيل الجِلْدة الذي يشرب دخانه أو شايه بالسُحت، ويقبل على نفسه الجُرسة والمَهْزءة.

كلّها نعمة من عند ربّنا، يبوس الواحد يده عليها، وشّ وضهر.

أنا بقى كنت أطلع آخر الجمعة بحتّة بخمسة، بحالها. حوَّشت، وفي آخر الصيف اشتريت جمهوريّة أفلاطون ترجمة الأستاذ حنّا خبّاز بخمسة وعشرين قرشاً، والحضارة المصريّة لغوستاف لوبون ترجمة الأستاذ صادق رستم بثمانية قروش. وكمان أدّيت لأمّي، ولستّي أماليا

قرشين كـده، كلّ واحـدة اشترت لي حـاجات، شبشب، شرابـات، علبة بريانتين، كده يعني.

في ليالي الحرّ كنّا ننام بـرّه الخيمة، عـلى طاولـة الفرّانـين، واتغطّى بملاية ـ زيّ الفُلّ طبعاً. ستي أماليا كانت تغيّر الملايات مرتين كل أسبوع ـ والتفّ أحياناً بالبطانية على وشّ الفجر، من لسعة برد خفيف. ومازلت حتّى الآن لا أعرف ألذّ ولا أحلى من هذه النـومة في جفـاف الصحراء، وصمتها الكامل، ونقاء الدنيا، ووَنَس العمّال النائمين على مبعـدة قليلاً ملفلفين في خِرقَهم وأحرمتهم وممدّدين على الرمل مباشرة، أو على طوايل الخشب.

وكنت أستغرب قليلاً أن ينام اثنان منهم، في حِـرام واحد ملفـوف بـإحكـام عليهـما معـاً. وفي نصف الليـل، أراهمـا، كـأنّني في منـام، يهـتزّان، يتقلّبان، ويصـدر عن كتلة الجسم الواحـدة المتلاصقـة أنـين مكتوم، وتأوُّهات وجعٍ صُلب.

وكنت استحمُّ كـلَّ أسبـوع مـرَّة، مـرَّتـين، عنـدمـا يـأتي اللوري بالتموين، وبراميل الماء الجديـدة، ينزلهـا العمّال بحـرص والمياه تنتـثر وتطشّهم وتنكبّ منهم قليلاً.

أسقط بـاب الخيمـة القـماش عـلى الأرض وأثبّتـه بـالخـوابـير من الـداخل. ويشيـع ضوء محمـرّ قليلاً من وهـج الشمس عـلى القـماش الخارجي ونوع من الحرّ الحميم المشعّ.

ومـع انصباب المـاء الجـديـد المنعش من الكـوز، يـزيـح رغـوات الصـابون المـدغـدِغـة، كنت أستمتـع بجسمي، ووحـدتي، في حلم

شبقيّ متكرّر، امرأة أعرفها معرفة النّدّ والصِنْو والمثيلٍ، أتلمَّس حناياها وخفاياها، غريبة مع ذلك غربة نهائيّة، وأجنبيّة عني، نعومتها واستدارتها وغنجها، تشعلني وتشطّ بي لكني لا أعرفها، ومهما عرفت منها فيما بعد فلعلّني مازلت لا أعرفها. امرأة وهمي وحبّي، امرأتي، امرأة غربتي، لصيقة بي، ومنفصلة تماماً.

كنت أحياناً أقضي ساعات في تجوال حُرّ في الصحراء، أقفل الخيمة بعد أن يأخذ كل واحد ما يريده في يومه، وأهيم وحدي في الرمل. ومع ذلك لا أجعل قمم أعمدة التلغراف تغيب عن عينيّ قط، هذه علامات طريقي إلى الأمان، لا أني أتحقّق من أنّها هناك، كلّ لحظة فيها يخيّل إليّ، فكم قرأت عن مواجع وفواجع التوهان في الصحراء، وارتعبت منها، ولكنّي لا يمكن أن أقاوم سحر الوحشة والصمت في عمق الرمال، وقد غابت الخيمة والعمّال، ووابور الزلط ورائحة الزفت المصهور وأكوام الأسفلت السوداء ملساء الجسم والزلط ونشارة الحجر الأبيض المدكوك. وقد غرقتُ في خيالاتي وتهويماتي، ورجعت إلى صحبة عمر بن أبي ربيعة والمجنون، وجميل بثينة، وامرئ القيس، عشيقاتهم ومحبوباتهم ونسوتهم الأعرابيّات مدوّرات البطن محزومات بعصابات حمراء عريضة على استدارة الأجسام البضّة، مخزومات الأنف بحلَقَ ذهبي مشرشر الحواف، موشومات الذقن بخطّين متوازيين، واللمى الأزرق الداكن على الشفة السفلى المليئة الواعدة بلذّةٍ لحيمة ومُصفّاة معاً.

وجدت تلّة عالية قليلاً، واسعة، يغطّيها حصى متعدّد الألوان والأشكال والأحجام، ناعم الجسوم: مخروطيّة ونقيّة وممّوجة محبّبة

ومصقولة مدوَّرة ومستطيلة كثيفة ومشطوفة نحيلة خطوط بيضاء رقيقة كالشعيرات تلتفّ حول استدارة رماديّة تجنح إلى السواد وحدود قاطعة مرهفة البُنيّ اللامع يعطي حافتها المنعّمة خفوتاً يناقض لسعة حدّتها الأبيض الساطع ترقّطه نقاط رقيقة كأنّها تومض تحت الحصاة الشفّافة والخطوط الغائرة الصغيرة تشقّق الوجوه المنحوتة المتحلّلة وقلت كان البحر هنا منذ ألف ألف عام مازال البحر هنا وسيظلّ ألف ألف عام جمعت منه ما استطعت من كنوز ضاعت مع الزمن. ألم تضِع كلّ الكنوز؟ بما فيها كنز الحبّ؟ ألم تضِع؟ الضحكات السريعة الحلوة الخافتة، متتابعة، من فم جميل وأنيق، النظرات الموجزة العذبة، نافذة النصل، متتابعة، من عينين ساجيَتين تماماً، حرّيّة لا حدود لها داخل الروح، طيور زرقاء الجناحين ترفرف باتّساع، هل ضاعت؟

لكلِّ نورٍ ظلُّه. طبعاً. أفي هذا كلام؟

نقيّة، كانت، نقيّة هي، مظلمة ومتلوّية أيضاً، شَغوفٌ حيناً ونفورٌ عزوفٌ أحياناً، كالطفل في ائتمانها وفي مكرها المكشوف، ومجرِّبة محنكّة الجسد بل جرأتها ومعرفتها مخيفة، جَسورٌ مشاكسة، وديعة متقبّلة خاضعة خَنوعٌ، متقلّبة وحولها شكوكي، وفي يدها روحي، ومصيري، أهذا سرّها؟ هل ضاعت؟ أين مضت؟

عثرت على موْغِلٍ منّي في تلّة الحصى على رأس غزال، هيكل بِرئ تماماً من كل لحم، من لوثات الحياة، عظْم أبيض صافٍ وصلب، عيناه محجران مجوّفان مفتوحان على ظلام الجمجمة الداخليّ، ليس فيه إلّا الفكّ العلوي بأسنان مازالت سليمة، سقط الفكّ السفلي

وانفصـــل ولم أجـــده قط، رأس فقط، أين ذهب البـــدن، وهيكله؟ ظللت أحتفظ بـــالـرأسِ، أُحـــرّزه وأكنِـــزه من بـــين أرصـــدة نفسي الشحيحـة، حتى اعتقلتُ في ١٩٤٨. ولمّا خـرجت لم اكتشف فقدانـه إلّا بعد سنين طويلة. هل كان فعلاً رأس غزال؟ كان عمّي فرح قَلّبَه بين يديه السوداوين طـويلتيْ الأصابـع، وقال غـزال يا ولـدي. غزال صغير، لباني، يا وِلْداه!

وعثرتُ أيضاً على مبعدة من الطريق قليلاً على قطعة حريريّة ممـزّقة مخرّمة بدنتيللاّ رقيقة صوّحت الصحراء وقسوة العراء لـونها البنفسجي فأضحى باهتاً جداً شاحب الحمرة جدّاً، متموّج الذبول.

كانت مجرّد مزقة نصفها مدفون في الرمل، في وهدة طريّة واسعـة، مهد مسوّى طارت له أوهامي الشبقيّة واستطارت بجسمي شطحتُها. دعيني أحلم أيّتها الغريبة العابرة ساعـةً في البرّيّـة، لا أعرفـك، ولن أعرفك أبداً، أيّتها الوهم الماثـل، بعينيك القـاسيتين المحبَّتـينْ. دعيني إذن أغمض عينيّ على ربوتيْ صدرك الدافئتـينْ وأشتطّ، جسداً مثقـلاً بالأطياف، سكران بالرؤى. لا تنظري إليّ. لـو سمحتِ، لأنّني أرى في عينيـك هاتـين أغواراً يضـطرم فيهـا ظـلامُ نفسي. أتـون من نـار سوداء. بريق صارم ومتألّق وله طعنة. لا أقوى، بل لا أريد أن أرى ما في عينيك. ومض انعكاس الشمس واصطخاب دوّامات الهـاوية. فـلا تنظري إليّ، من فضِلك. لا تعـرفيني فـأنـا أعـرفـك، سيّـدتي، وَهْمي. نـزيف دمعي قـد أفـرغ من كـل دمـه، خـلاص. رائحتـــك الداخليّة عبر أهواء الرمل وعصف شهواتي مثل رائحة العسل الأبيض وشهـده الشمعيّ قد غـاض منـه النِكْتـار المُحيِي. زهـرة الحنّـة بـين

فخذيك بضّة سريعة إلى البلل بالندى ناعمة الشعيرات مثل أزهار دقن الباشا، صفراء. وكأنّها ندف القطن المنتفشة ولكن عبقها له حَمْوة ولذعة شديدة الحلاوة خبل الحومان والاضطراب جيئة وذهوباً في نطاق العينين المحيقتين إطارهما قابض وجسمك جوهرة نصفها مدفون في الرمل نهداك صلبان متلاقيان متضامّان يضغطان عليّ حوريّة نيليّة مراوِغة أم سمكة ذهبيّة زلجة تنزلق من بين أصابعي المشعوفة باللهفة وتثب إلى مياه الصحراء تشقّ لجّتها الصاعدة الهابطة في نور ما بعد المغيب القاحل، امرأة وَهْمي هاربة منّي أبداً وهي في حضني، لا، لاتهمسي إليّ، في صوتك إبهام ولَبْس لن ينفتح لي.

حادّة وحارّة وناعمة ولها شوك الصبّار المحتشد ترفرف فيّ طائر ذبيح يتهدّج بحنانٍ بعيد وبما لا أفهم ولا أعرف، فحيح تحت سفح رازح الوطأة فَوْح الاحتراق.

اصمتي إذن، لو سمحتِ، لا أريد أن أسمعك ولا أن أعرف ـ حتّى ـ مَنْ أنت، ولماذا كلّ هذا الجمال، وكلّ هذا الابتعاد، قسوة النأي تعويذةٌ ساطية تجذب روح المسحور الفَرِح بالتهلكة طواعية كُرة الكون شعرك الوحِيّ صلابة العينين إلهية صوتك لا نظير لقيمته تقولين بكلّ شجوك وشهوتك وشوقك وشقوتك كيف يمكن أن أقول إنّك لست وحدك فلماذا أنا وحدي لماذا كلّما ازداد لهجي بك ازداد خَرَسي وكلّما شدوتُ وتفجّرتُ أطبق عليّ العيّ لماذا أنا سجين لا لا لا أريد أن أقول ذلك لماذا أقول إذن فقط أنا اشتقت حاولت أن أرى أسمع أعرف أُفيق من وطء القلق سئمت التجوال والشرود في غيْر وادٍ متعب أنا على وهدة الرمل والحصى.

طيِّب يا أخي، ثمّ ماذا؟

حفيف حليكِّ الفضيّة على جيدك الحريري لا يبارحني ولا يغريني بتقلبيها قسوة الماس الصلب في أصابعك لا تجتذب يدي أتلمّسها وقد مسَّني الإلّـه وبي لَمَمٌ من تباريح الشوق دعيني لا تحرميني حتى الحلم هل ضُرِبَ عليّ الحرمان حتى من الحلم؟ نهداك النابضان تحتي جناحا وثنٍ غضّ ومنقضٍ ضقتُ بذلك كله لا يستقيم لي شيء منه حطام سحب بخور منهَكٌ حجارةُ صبوةٍ منقوضة ومخرَّبة. «كيف تستقرّ الروح وقد دعاها» لا آنس إلى شيء والسأم يحيل كلّ شيء كل شيء صمتاً يبعث بدوره على سأم جديد والدورة لا بدء لها ولا نهاية طبعاً وماذا بعد لا شيء لا شيء ويمضي الزمن لماذا لا ينقضي هو أيضاً لماذا لماذا فما من يدٍ تمسح هذه الشقوة لا يا شيخ طَبْ طَظّ يا سيدي في هذه الشقوة. طُظّ فِش.

أنا هويته وانتهيت.

مادمت أنا بهجره أرتضيت.

ولا في المنام.

كان خالي ناثان يلاحظ العمّال ويشرف على شؤونهم، يوجِّههم، يحثُّهم، ينبح حِسّه مرّة، يكلِّمهم ويعلِّمهم بالمداوة مرّة، وكان الشغل يتقدَّم.

وكان المهندس الإنجليزيّ يقيم في الرست هاوس، ويأتي كلّ يوم على غير ميعاد، في عربة چيپ، من ناحية الرمل، وينزل يعاين ويراجع ويفتِّش، أحياناً يغضب ويثور يسكت ويقول: أفارِم . . أفارِم

عليك ناثان بالعربي المكسور، ويقـول اسم خالي بـالنطق الإنجليـزي يخطف مَدّ الألف الثانية خطفاً.

انتقى عمّي فرح العربـاوي حجراً مسـطّحاً مسـوّى، ونظّفـه بيده وقـال لي أن أحتفظ له بهـذا الحجر في خيمتي وحيـاة الرسـول، وأقام الكـانون من حجـر صلب ترك في وسـطه فجـوة أشعـل فيهـا ـ بعـود كـبريت حكّه في كعب قـدمه ـ قـطعاً من خشب شجـيرات الصحراء الجافّة، وورق «الأهرام» القديمة، وظلّ يـرعى النار يغـذّيها بـالعشب الصحراوي الناشف الذي كان قد جمع منه حرشات طقطقت في النار وفاحت منها رائحة عطريّة حرّيفة وجارحة ودخان أبيض، حتّى سخن وجـه الحجر، قـال لي أن آتيه ـ بحيـاة الـرسـول ـ بكـوز من المـاء في البرميل الذي في الظلّ، وراء الخيمة، فقمت وتركته لحظة، ولمّا عدت أخذ حفنتين من دقيق كان يربط عليه في صرّة طريّة في جوف مخلاته، وعرفت من رائحته ولونه أنه طحين الذرة والحلبة والشعير معاً، ومزج الدقيق بقليل من الماء، ولم يعجن بل دحاه برفق ومَعْلَمـة على الحجـر السـاخن المسطح وربّت عليـه بأصـابع حـاذقة، بسـطه ورقّقه، حتى استـوى رغيفاً مـدوّراً له عبق نفّـاذ، احمرّ وجهـه السفلي وسمعت لـه دقدقة، والرغيف يهبّ من على سطح الحجر، بخار خفيف يطير تحتـه وحوله، طَسّ عمي فرح العرباوي حبّات من التمر الجاف بحفنـة ماء من قبضتيه وعزم عـليّ وألحّ فـأكلت كسرة رقيقة وتمـرتين وكـان مذاق اللقمة غريباً متحدّياً للّسان والأسنـان تَحَدِّي اللذّة والمفـاجأة. وتفتّـح وجه عمّي فرح بابتسامتـه درداء الفم التي تفيض عليه سـماحة وطيبـة تكاد تكون طفليّة.

وفي آخر النهار عندما راجعت رصيد المؤونة اكتشفت فقدان علبة دخان أبو غزالة، ورجعت أعدّ العلب وأحصي الفلوس وأعيد العدّ والإحصاء. وعرفت أين ذهبت العلبة، سدّدت حسابها من أجرتي آخر الجمعة، وعندما جاء عمّي فرح، بعد أيام طوال قال لي أنا اللي لافيت حُجّ الدخان يا ولدي، ما أنا عارف. أنا عامل حسابي أنّك أنت حتحفظ العهد. ما هو الجِرْش شاحِح اليومين دول، إيش حُجّ دخّان؟

لم تكن السرقة هي التي أحفظتني وكسرت قلبي بل ما رأيت فيه خيانة. وقلت لنفسي لو طلبه منّي ما رددته لماذا لم يثق فيّ؟ لماذا ـ هو ـ لم يحفظ العهد؟ ليست السرقة، بل الخديعة. طهرانيّة مني، وسذاجة، يا ترى؟

طبعاً.

قلت لماذا يكذبون عليّ؟ لماذا يخدعونني؟ قلت لماذا، طيّب، أنخدع؟ لماذا أصدّقهم أنا؟ وأنسى؟ شيء ما قد انكسر.

قلت: لا يا شيخ؟ كلّ ده من جراير علبة دخان؟

بالطبع لأ.

أكلّهم إذن، كلّهم؟

لماذا يكذبون، يخدعونني، ويحكون لي ـ بعد ذلك ـ حكايات؟ حرصاً على مشاعري، وخشيةً عليّ؟ أم شفقة ورثاء؟ أم مجرّد استهانة واستخفاف؟

ولماذا أنخدع؟

ما من حاجة بي لهذا أو ذاك. ولا لأحد. ما أمضّ احتياجي لهذا الذي أسمّيه الصدق. هذا الذي أسمّيه الحبّ. وما من فاصل، في وهمي، بينهما.

بشمتْ بالكذب المدّمر نفسي، تُخمّت بنتن الخراب والتخريب.

الفتك بالآلاف، عشرات الآلاف من الأطفال جوعاً ومن نهك الأمراض في وسط الأنقاض المنقضّة من ضربات صواريخ الشبح المتلصّص كذب الطغيان وفصاحة الخيبة المتذرّعة بأقنعة مفضوحة من ركامِ إلهام بالٍ وسيطيّ الكذب العيّي المتستّر خلف شعارات منتهَكة أكاذيب المهيب الركن حفظه الله أكاذيب الأمير الشيخ رعاه الله الأكاذيب مشعِلة الحرائق ملوِّثة البحار والأنهار ضاربة بالسواد على الأرض والسماء أكاذيب الحكّام والكُتّاب والصحف والإذاعات والتليفزيونات أكاذيب الأعداء والأصدقاء على السواء أكاذيب الحبّ أكاذيب اللامبالاة أكاذيب السرير أكاذيب المنصّات في كلّ مكان أصحاب السموّ والفخامة والمعالي والجلالة والسعادة الصفوة والحرافيش الملوك والصعاليك على السواء على السواء أكاذيب الأغاني أكاذيب الكتب أكاذيب زيف الفن أكاذيب الشعر أكذب الشعر أكذبه أقبحه أسخفه انتهاك متصل لكل أوطاننا في الروح وعلى الأرض وما وراءها. أريد الانطلاق، الانطلاق، الجري بوُسْع الرجليْن في صحراء الصدق المحترقة المتطهِّرة من كل لوثة. بعيداً عن كل الأكاذيب التحليق بوسع الجناحين في براح السماء الفسيح صائحاً بكلّ قوّة الفرح بالحرّيّة آآآآآآه ـ آآه ه! وليس أمامي إلاّ مواجهة

الهوُلات والتحديق في عينيها دون أن أستحيل حجراً، ما جئت لأقول سلاماً بل لعنة الأحشاء، حَطْم الهياكل دَحْر وحوش القهر.

ظللت أنتظر ظهور عمّي فرح العرباوي. الشيء الوحيد ـ تقريباً ـ الذي حزّ في قلبي عندما رحلنا عن الموقع أنّني لم أرـ ولن أرى ـ فرح العرباوي أبداً بعد ذلك. مازلت أراه وأسمع لهجته البدويّة الخشنة التي لم أكد أفهم كل كلماتها بصوته الأجشّ الصادر من غور صدره الأعجف القويّ.

رجعنا إلى الطرانة في أوّل سبتمبر. وصلنا بالليل، وكانت وعوعة الكلاب تردّ على عواء الذئب على حفافي البلد. وكنت مرعوباً دقّ قلبي قد توقّف.

لَجَب المخلوقات الصاحية الشرسة كلّها يتزاحم في صدري يتضارب ويتلاقح ترداد مواء العِرْسة وجهها وجه قرد ضحكته تتردّد مع صلصلة الحُلي التي سرقها من خزانة خالتي روزة وخالتي سالومة فيها ترنان جلجلة أجراس صغيرة صرير انسياب السلمندر الذي له صدر قُمْرِي يصاعد سجعُه ورأس ديك له زُقاء بينما يجرّ ذيله الطويل بحرافيشه لها خشخشة يابسة هامُ الشجر الليليّ المتكاثف أسمع للأغصان الأثيثة ترانيمَ بلغةٍ لا أعرف منها نأمةً وفَهْمُها يدخل قلبي بينما فحيح التنّين المجنّح يختلط بصهيل فرسٍ له رأسُ أسد يزمجر وجسمُ ظبيٍ وحوافرُ ثور يتراوح زئيره مع الجئير عميقِ الغور بُغامُ الغزال الذي يسبح بجسم سمكةٍ زعانفها أجنحة خفّاش جلديّة مبتلّة لها طبطبة لِتبينٍ وقعها المنتظم في الرّياح الدفّاق نَخيرُ الجنِيّ الزنديق

مختبئاً في دغل الحلْفا والحَنَا وراء الطاحونة يخبط حدّها بقضيبه الوحيد يبقر به أبضاع النسوان الخواطي صهيل البطريق الذي له حوافر الخيول الصافنة على شطّ الجرن المترقرق بالطين الرخراخ قرقرة السقنقور وهو يشقّ ثبج الليل والنيل بقبقة الماء الذي ينفرِق شقّين إذ يمخرهما قضيباه المتوازيان المنبثقان من بطنٍ هي درع سلحفاة زُمَار الأتان المستكنّة في الزريبة رفرفة جناحيها اللذين يضربان بلا جدوى عقيمينْ كأجنحة النعام شخْب حليب الكبْش الذي له ضروع الجاموسة متلاحقةً منتصبةً كثيرة ينصبّ منها اللبنُ السخن الأبيض ويخرخرُ في الطاجن الفخّار الذي لا يمتلئ قط طول الليل نقيق الضفادع في قرار المساقي لها مناقير اللقالق تنقر بها لحم القراميط الزلقة على القيعان خُوار بقر الوحش المرقّط القابع في ماء الجرن فاتحاً فكّ فرس النهر المنهوم يلتهم حبّات البطيخ الضخام الحبلى بحلاوة اللحم النضيج قانية الاحمرار كرير الثعبان العظيم إذ يزحف في الحقول بمائة قدمٍ مدبّبة صغيرة يحكّ التربة القاحلة ويحرثها للتخصيب حتّى الصباح خُوات العُقاب الساقطة على زروع البرسيم على الريّاَح لها فم حوت بأنياب لا عداد لها تسفّ حبوب الذرة وتكشطها من على كيزانها وتشفط صغار السمك من الماء ضبُاح الثعلب الضخم القارّ في زروع القطن يدق الأرض بخرطومه القوي المفتول يدوس بخفّيْ الجمل على النّوار بُعار الماعز الذي له فكّ تمساح له سيف حادّ ممدود سمعت صوت شَقّه شجرةَ النبق العريقة أمام البيت.

كان عمّي فرح العرباوي قد قال لي يا ولدي اسمع المنام وسِرْ على هداه، فهل عرفت كيف أصغي لما في أحلامي أتبع خطاه؟

بعد عَوْدي للطرانة قرأت يوم ٤ سبتمبر ١٩٣٩ إعلاناً في «الأهرام»، بعد أخبار إعلان الحرب التي عرفناها باسم العالميّة الثانية، أنّه عند صموئيل في مطعم وبيرة كارلتون بشارع ألفي بك تليفون ٤١٨٠٠، غداء حسب الطلب ٩ قروش وعشاء حسب الرغبة ١٢ قرشاً وأسعار خصوصية للمشتركين وعندما عرفت شارع الألفي بعد الثورة كنا نتغدّى في مطعم البلغاري أو الأرمني، أنا وأحمد شوكت وندفع - كلّ واحد لنفسه - سبعة قروش ونصف في الغدوة طبيخ ولحمة وحلو، وكان قد أخذ الدكتوراه من جامعة طاغور في الهند، والتحق بالخارجية واشتغل بعد ذلك بسنين في مفاوضات معقّدة مع اسرائيل أيّام السادات، ثم سفيراً لنا في السودان. كان أيامها يسكن غرفة مفروشة في الفلكي. ولمّا لقيته مرة بالصدفة، بعد ذلك بسنين، أقلبت عليه بحماسة الإعزاز القديم وغرارة الشباب البائد لم تثلمها السنوات الطوال. وقابلني «أهلاً» بارداً محايداً، ربما لأنّني هتفت به بحرارة عالية «شوكت!» ولم أقل مثلاً «أحمد بيه!» كنت معه في شارع الألفي عندما سمعت جمال عبد الناصر في راديوهات القاهرة يعلن تأميم القناة، بصوته العميق الذي لا ينسى «بِسْم الشعب» تعانقنا في الشارع ليلتها، وتصالحنا ربّما لأوّل مرّة مع الزعيم، وذهبنا نشرب بيرة في كارلتون. وكان صموئيل قد اختفى.

كانت السيّارات الباكار والفورد والشيفروليه والأوستن والرينو تخطف بي إذ تمرق على جانب الطريق القريب الأصلي وتتجنّب نصف الطريق الآخر، الموسّع، المستصلَح، بوجهه الذائب من الزفت والأسفلت الجديد المفروش على طبقة الزلط والحصى المدكوك المسّوى،

وكنت ألوّح لها أحياناً بالتحيّة المجانيّة لمجرَّد الاستئناس وبعدها بسنة فقط كنت ألـوّح بيدي. أيضـاً للوريات الجيش الإنجليـزي المفتوحـة وعليها كبّود التاربولين المشمّع المشدود على قوائمه الحـديديّـة، يغطّي حشود الصبية العساكر الإنجليز الذاهبين إلى رهانٍ مع الموت غالباً مـا ينتهي بالخسارة، أجـري مع اللوري قليـلاً، وخلفه، على جسر النيل الترابي أمام الطرانة، وأنا أشوِّر بـذراعي وأهتف داون وذّا نازي داون وِذّ هتلر والعيـال العسـاكـر ينـظرون إليّ بـاستغـراب قليـل ولامبـالاة وتخوُّف، هذا الولد بجلّابيته وشبشبه الذي يجري ويشوِّح ويصيـح بما لا يسمعونه غـالباً في هـدير المـوتور القـوي وخبطه المنتـظم. لا شكّ يتسـاءلـون في تـوجّسٍ قليـل. أُلـوّح لهم هم أنفسهم وقـد انتهت الحرب، غاضبـاً ثائـراً في محطّة الـرمل وهم في الچيپ المفتـوح وعلى أذرعهم التوْمي جَنْ في وضع الاستعداد إيفاكيواشَنْ داون وذإمبريالزم وليس الإنجليـز من هـواة التقـاليـع كـالأمـريكيـين لكنهم لم يكـونـوا يُحجمـون عن إتيـان أعجب التقــاليـع التي تضــارع أغـرب البــدع الأمـريكيّـة فقـد أقيم أخيـراً ـ سَنَتَهـا ـ سبـاق في السبـاحـة ببحــيرة سرپانتاين في هايد پارك وكان الشرط الأوّل في السباق ألا يشترك فيـه إلّا كلّ من ارتدى ملابسه كاملة التوپ هات الأسود المنتصب والقبّعة الباولر المدوَّرة والصديري المزرّر بالكامـل والجزمـة الإنجليزي الثقيلة والبدلة الصوف فهل يجرؤ المجمع اللغوي أن يعمل على تنقيح أسـماء بلاد وقرى مثل نِضْبابا تادرس وكـوم زَمْران ومِنْيـة الحيط وكفر العتـة وكنيسة شبراطو وسيّد الأقليتي إن لم يعمل على محوها تماماً قلت ليته لا يجـرؤ أبداً وقـطعان الخـراف الإنجليزيّـة الملظلظة تسير بـانتـظام وراء

راعيها في المروج الشاسعة الخضراء قانعة راضية مكتفية بذاتها قطعان الأسرى الطليان تسير بلا انتهاء على الطريق المدكوك في الصحراء الغربيّة انتهى رهانهم، هم، وأسلموا أيديهم إلى خواء الرمل الذي لا حدود له الأسير الشهير الذي يخرج من خندقه يهوي على حذاء اليانكي يقبّله والدبّابات والمدرّعات تسحق الآلاف تدفنهم أحياالصبر خنادقهم ومعاقلهم تحت الأرض الأسرى والمشرّدون والقتلى بالملايين ـ أو بالآحاد الذين يعدّل الواحد الفرد منهم دائماً أيّة أرقام مهما كانت فلكيّة ـ في كمبوديا الخمِر الحمر وفي أوجادين في جبال كردستان وسفوح كشمير في المكسيك وشيلي وسهول السلڤادور في كاتنجا وفي زيلع وهرر ومصوّع في روديسيا وفي الكونغو البلچيكية في البوسنة والهرسك في كرواتيا وفي ناجورنوكارا باخ في سويتو وفي القدس في أحراش أنجولا ومعتقلات المِيـة المِيـة والأنصار (١) والأنصار (٢) والأنصار إلى ما لا نهاية في النقب وفي صور وصيدا في نيوكاسل ونيويورك في أرض الحرب والضرب وخراب الروح الذي لا ينتهي تاريخُه المتقطِّر أبداً بالدم المسفوح سدى.

البحّار الفرنسي في أسطول ديجول، قميصه التحتاني مخطط وجاكتته زرقاء وعلى رأسه الأشقراني بيريه له شوشة مدورة حمراء يقبّل البنت الأجريجية على شفتيها قبلة مستميتة ومستهترة معاً على محطة سپورتنج الصغيرة وهو يركب الترام عائداً إلى سفينته الراسية عند رأس التين أو عندنا في الدخيلة التي مازالت برية ومستوحشة قليلاً ولويزة بنت المعلم شنودة البقال عودها رعرع، وصدرها نبّق، وهي تنحني وتنظر إليَّ بنظرةٍ مستَرقة وعارفة تُكوِّم قوالح الذرة وسط الدكان

المعتم نهداها الصلبان لا يكادان يهتزان في انحناءتها والواد برسوم يقول لي إن جنتها حامية وإنها حتسوي الهوايل ياواد، الزنابير الحمراء تحوم وتئز وتنقض، بطونها أسطوانية كثيفة مخططة وطنينها شرير يبعث القشعريرة في جلدي حضرة الأخ الحزين أبو أمين ألهمك الله الصبر حضرت والدتي من دمنهور وهي في شدة المرض والأسى والحزن وأخبرتني بوفاة أعز ما عندنا غَنّنْ فكان خبر أسود مشئوم نزل عليَّ كالصاعقة فهزني وحشّ وسطي وحدث عندي إسهال مستمر حتى فقدت كل حركة ولم أدر بنفسي إلا هذه الساعة فكتبت لك هذا وعيني تبكي ويدي ترتعش أسأل الله أن يلهمكم ووالدته وإيانا الصبر الحزين ناثان في ١٩٤٣/٨/٨ وكنت أنا أحمله على كتفي وذراعي وأنا أرجع به من عيادة الدكتور إلى بيت شارع ابن زهر أعبر به خط تراموای راغب باشا وأتفادى عربات الكارّو والسيارات القليلة في عز الظهر وهو يتعلق بعنقي في استماتة يستنجد وكأنه يعرف من الآن أن لا نجدة له خف وزنه وسقطت أجزاء من شعره تركت بقعاً في الرأس جرداء عارية مصبوغة الآن باليود والمعجون نفّاذ الرائحة، ولم يتركه التيفود وكان يصرخ تلك الصرخات التي لا تعرف العقل وتنطلق من الجسم نفسه الذي يعرف أنه يموت ويرفض أن يموت ولم أكن أملك له شيئاً لا أنا ولا أحد ولا أعرف الآن كيف مات ولا أين دفن هل أنساني الألم وإن كنت أعرف أن أبي أباه قد انكسر بعده، ولم يُقِم عوده حتى لحق به لم تمرّ عليه السنة.

أما أعشاب الحَلْفا الخشبية النابتة وراء الطاحونة فقد رويت دمَ الذبيحة واستحالت نساءً شبِقات متراقصات في هبّات الخماسين

الترابية لهن نداء لا يقاوَم جسومهن خضراء وغضّة جذوع الشجر على الصفّين الحور العِين المخادعات سوداوات الإهاب لامعات البشرة تنبثق فسائل العشب الأخضر تحت آباطهن ومن بين أفخاذهن عساليج منشعبة عن أذرعهن وسيقانهن جارحات الحفافي قُبْلتهن وغيابة القبر سمّ منقوع وعسل حاد الشباة معاً ويتخايلن في نور القمر الأخير.

في نور القمر الساطع المنصبّ بلا رحمة في ليل أغسطس على صفحة وادي النطرون الأعشاب معدنية الصقال أجداث جمد الثلج الأبيض عليها وأنفاسها ثقيلة وسخنة.

ألم يكن خالي ناثان معنا؟ أعرف فقط أنه جاء على وشّ الفجر بعد أن كنت قد نمت في بيت الفَرَح، في الوادي، هل كان بيت العريس؟

وأعرف أننا ظللنا نقطع مسافات على المدقات الصلبة وبين كثبان الرمال الناعمة المنهارة، تحت وطأة القمر الساحقة، حتى كلَّت قدماي، عمي فرح أمامنا بخطواته الواسعة المتوثبة يسري في الصحراء كما يسري الواحد داخل بيته، ولا نكاد نلحق به، ولكننا لا نصل بعد، والحكايات وأخبار الناس رايحة جايّة في الجماعة الصغيرة ريّس العمال وقريب العريس وقد دعا خمسة ستة من زملائه، فقط، كان منهم حجازي عوضين زوج خضرة، أخو عوض، وقد أخذ البرد يتسلل إليّ، وخلع عمي فرح تلفيعته من على كتفيه ولفّ ظهري. وكانت لها رائحة حلوة من دخان أبو غزالة ونفح أعشاب صحراوية، وفي وسط الرمال لمحت ما يشبه الأنقاض القليلة من الحجارة القديمة

ولافتات مكتوب عليها بالعربية والفرنسية استطعت في نور القمر أن أقرأ فيها أسماء أديرة دارسة، مغروسة في الرمل بين الأطلال وبخط أصغر أتبينه بالكاد: «مصلحة الآثار المصرية». قلت ياه.. كم من الأديرة كانت معمورة بالإيمان والتقوى ضُربت أشباح سبعين ألف راهبٍ وكم من مئات القلالي والصوامع والمغاور والمعتكفات هل سمعتُ ترداد إيقاع الترانيم المملّ الرتيب النغمة بالقبطية الفرعونية المهجورة وغير المندثرة؟ وهل خايلتني نفثات البخور والشمع أم هي ضوْع العشب الصحراوي في القمر؟

كانت ساقاي تخوران بي في الرمل الناعم وفي تعب المسيرة الطويلة، منذ كم نمشي؟ ثلاث ساعات؟ سمعت عمي فرح يقول بصوته الأبح:

«الهوكرية ع اليمين هاسّا»

ولم أر شيئاً ولم أفهم ولم أعنَ بأن أسأل وخايلتني أسوار من الظلال دهماء السواد في نصوع القمر.

أحسسنا الأرض تتحدر من تحتنا، والرمل يصلب ويشتد تحت أقدامنا وعمي فرح يشوّر لنا على بقعة لامعة بالملح الفضيّ في قبضة القمر، تذكرت بوبيللو، وحننت لستي أماليا ولغرفة النوم الضيقة الحارّة في بيت الطرّانة.

أكلت فتّة الضاني والرُزّ بجمع يدي، تشرّ بالسمن، كنت جائعاً ميّتاً من الجوع، وأنا أتفرج على الغازية ترقص في البدلة الشفافة المذهّبة، حزامها الأحمر العريض يلف الردفين الممتلئتين، ويدور تحت استدارة البطن الأسمر المكشوف يؤكد غموضه ودعوته ويبرز وثَارة

الربوة المخروطية تحت البطن، وكانت ممتلئة الأنحاء واضحة بضاضتها وتهتز في إيقاع طبل فجٍ وأوليّ، وقْعُ نبضِ الدم في ذكورةٍ فتية جديدة متوترة بالشبع من اللحمة الضُاني ومن الغُلمة إلى اللحم الأنثوي نصف الممنوع، ومع وشوشة الصاجات في أصابعها تخشخش حُليّها بالتساوق مع الترتر الأصفر في بدلة الرقص ومع صلصلة العقد الذهبيّ ذي السبع اللفّات قلتُ قشرة بلا شك وإلا ما استطاعت أن تحمله على نحرها الذهبي والأساور الحَنَش الغليظة والخلخال السميك المفتوح ذو الرأسين المربَّعين، وكان المزمار والطبل ودخان المعسل والحشيش يملآن عليّ دمي بضربات اليأس المبكر والشبق المبكر في الصبا في عز ليلة النشوة.

أحسست فجأة خالي ناثان ينحني عليّ ويوقظني، وقال لنفسه: كيف تركتك تنام هنا على هذه الفَرْشة؟

أما أنا فكنت قد نمت ملء جفوني، كان ذلك الفراش عندي أريح من سريري في البيت، حتى.

كان الكليم خشناً ومبقعاً، كما رأيت الآن في نور الكلوب الذي بدأ يخفت ويرتفع بوشيش متقطع، وتلفيعة عمّي فرح تغطي الحرام الصوفي المخطط الذي وضعوه على مخدّة صلبة جافة إذ أسقطتني عليها سطوة النوم دون أن أتوقعها.

رأيت عمّي فرح نائماً أيضاً، على الرمل في الحوش الذي أخذ يخلو الآن وتخفت أصوات الفرح فيه، يسقفه سعف النخل الجاف القديم وعوارض معمولة من خشب الجمّيز، رأيت من خلالها نجوم الفجر الباقية القليلة تلمع فى سماءٍ صفاءُ زرقتها المنيرة لا نهاية لشفافيته.

(٨) سارة ووديدة

تزوج عمّي فانوس خالتي وديدة.

مع أنه كان يموت حباً في خالتي سارة، أختها الصغرى.

النظرة الوامقة في عينيه لا أنساها، حتى النهاية، مع زواجه بأختها.

وفاؤه لها وفاءً مطلقاً. ومع أنه خلّف منها ثلاثة أولاد، وأربع بنات يظل يرمق سارة بالنظرة العاشقة نفسها. حتى يموت.

وجهه الأبيض المرهف العظام، مربّعاً قليلاً ومرفهاً، ابن عزّ كان. عيناه بهما الحول الخفيف من أثر رمد قديم، سوادهما عميق، غطيس. يلمع دائماً بالرقة. هكذا عرفته. شعره المسرح الناعم محلوق بعناية دائماً، تحت الطاقية النظيفة المكوية، تحت الطربوش في المناسبات، جلابيته البلدي الصوف الغالية في الشتاء، بوبلين أبيض في الصيف، لا تعلق بها شائبة صيفاً وشتاء.

فهمت من ستي أماليا، في كلام مهموس لخالتي روزه وخالتي سالومة، لم يكن مقصوداً أن أسمعه، أن عمّي فانوس فاتحَ جدي ساويرس بما كان يعرفه جدي، وما كنا نعرفه، إنه يريد خالتي سارة.

وأن جدّي ساويرس قال له بدون غضب، بل بفهم تقريباً لما كان يعذّب قلبه، ماكناً جميعاً نتوقعه، وكان عمّي فانوس أول من يتوقعه. إن سارة هي الصغيرة - كما نعرف كلنا - هل يرضى أن تعنّس الكبيرة. وعلى العموم، قال، أختها تحت أمرك في أي وقت، من أحقّ بها من ابن عمّها يداري لحم بنت عمّه؟

وافق عمّي فانوس دون لحظة تردد.

هل كان في صميم نفسه قد أعدّ نفسه لهذا المآل؟

هـل كان في صميم نفسـه يخشى عـلى حبـه أن يزول ـ شأن الحب عادة.

هل كان حقاً يريد أن يهزم هذ الحب بنفسه، حتى يبقى أبداً؟

بقي حياً. الحب.

هـل قتلتُ هوى نفسي، وعشتُ بـلا نفسٍ؟ أم أنّ في قتـل نفسٍ حياتها؟

ياه.. يا عمّي فانوس. كيف استطعت أن تضحّي حياتـك كلّها، لتكسبها.

كيف استـطعت أن تدفن آلام الحب الـذي لا يطاق؟ وأين ذهبت هـذه التمـزيقـات التي شرّحتْ نفسـك شرائـح وفِلَذَا، دمهـا مكتـوم دائماً، لا يباح به؟

ولا يُباح؟

مـراقٌ بلا تـوقف في الـداخـل، دون أن تـراه عـين؟ هـل راحت هدراً، هذه الآلام والتمزيقات، دون أي معنى؟

كما لو أن من الضروري أن يكون للألم معنى، أي معنى.

يا لوعتي، يا ضنايَ.

أما من نهاية ـ لهذه الولولة وندب سوء الحال؟

أين ذهبت هـذه الآلام التي لا تُحتمل، آلام الـطفـل آلام الصبي آلام الكهل؟

لا قيمة لها.

ليس للألم مكافأة.

عيني رأت بنتْ سمرا والندى نازلٌ والشعر بالليل ع الخـدّ الجميل نـازلْ طَلبت منها الـوصال قـالت لي جدع ارجـع لتموت قتيـل المحبة والنـدى نـازل وانعقـدت ليالي الاستعـداد للفـرح الـذي لم أشهـده، عرفت به فقط من رسالة خالي ناثان لأبي. قال إن الأكليـل تمّ ببركـة الـربّ في كنيسة الـطرانة مسـاء السبت الماضي وازدان الـزفاف بـأهل الطرانة، المسلمون منهم أكثر من النصـارى، وحتى عائلة داود فتحـوا السراية مخصوص، وأرسوا ابنهم أنيس الذي يدرس الطبّ في مدرسة القصر العيني العليا في مصر، للتهنئة والتبريك.

عرفنا في آخـر العام التـالي أن أنيس ضرب نفسه بـالرصـاص على رقّـاصة كـانْ جابهـا من مصر، ولكن أباه الكهـل، أخذهـا لنفسـه. وعندما دوّى في العزبة النائمة طَلْقٌ نار من البيت الذي كـان يقيم فيه أنيس أفنـدي ـ وكان قـد طرده أبـوه، فلجأ إلى هـذا المأوى الـذي كان يُعد لعمال التراحيل ـ ظنّ القرويون وهم يتقلبون في نومهم الثقيـل أن أحد الخفر يطلق بندقيته للإرهاب، أو من الملل.

كانت رحمة تغنّي لخـالتي وديدة أغنيـات الفرح الفـلّاحي، بصوت خفيض ورفيع ينقطع منها أحياناً، يِجعلْ سنينـك ع العريس بهَـدَاوه،

وخَضْرة تضرب الطبلة، بعد أن تحمي جلدها المشدود على نار مصباح «الشيخ علي» المهتزّة بإيقاع طروب ورتيب، في حوش المندرة المفروش بالحصير والكِليم، ونحن نستند إلى المخدّات الصلبة المدكوكة بالقطن، أمام الباب العريض، وتحت أغصان شجرة النبق ـ الجميز؟ ـ الفينانة المتدلّية من الفسحة البراح أمام بيت جدّي ساويرس.

تنظر إليّ لنده ـ متربعة في جلستها على الشتلة ـ بهاتين العينين المكوَّرتين قليلاً الجاحظتين قليلاً.

ياه.. !

أول مرّة أُدرك الآن، وأنا في مساء العمر، أن هاتين العينين تلاحقانني عبر الزمن، هما هما، دون تغيّر، فيهما تلك النظرة نفسها متعدّدة المعاني متراكبة الطبقات، فَهْمٌ وسؤال، غرابة وإغواء، شيءٌ من استهانة، ربما، وشيء من امتنان ربما، تحريضٌ أيضاً، واستخفاف، استفزاز لا ريب فيه واستنجاد أيضاً، بيأس. وحبٌ أيضاً؟ ما معنى الحب؟ مَرّةً عينان عسليتان قبطيتان جداً، يعني في لون العسل وعذوبته وماء الفيضان، ومرّة صفراوان خضراوان، ومرة بئران عميقتان بسوادٍ خالص. ولكن دائماً واسعتان نجلاوان. دائماً قاتلتان وأموت فيهما حباً، هما هما، هاتان العينان.

تخطف لندة طرحة خضرة.

التي ينكشف شعرها الوثير الممسّد الغنيّ، فتضحك بخجل وأنثوية مفضوحة. وتحزّم لندة نفسها، وترقص على الواحدة، بجسم منساب

أملود، مطواع ومثير، في فستانها الذي أراه فجأة ملتصقاً ببطنها وردفيها ونهديها، كلها عذريّة ومنعشة، في القماش داكن الصفرة المنثور بزهور حمراء رقيقة جداً، طويل، مكشكش، واسع قليلاً كأنه بالكاد مكشوف عن كاحليها وقدميها الحافيتين اللتين رأيتها تدعكهما بالحجر الخفّاف، ثم تضعهما في طشت الماء المسخّن المروّق المذوّب فيه اللبان الذكَر حتى ينعم الجلد ويطرى ويحمرّ، ويزول عنه تماماً أثر القَشَف. هاتان القدمان تتنقلان تحلّقان وتحطّان، بخفةِ طائريْن، على الحصير الأصفر اللامع النظيف، تخطوان على صفحة قلبي وتدغدغان ذكورتي الجديدة التي تنتصب وتبضّ، فأجهد أن أداريها بطيّات الجلابية البيضاء التي أخشى ابتلالها وجُرستي بها.

وحتى حميدة البرصا وقد انتبذت ركناً في الظل، تخفي وجهها بطرف طرحتها، تتمايل مع الأغنيات ودي بيضة ولابسة طقم أبيض ولاهاينْ عليَّ أفوتِك ولا قادر أراضي خاطر أبوكِ يامّ النهود الطالعة بحلاوة الحَمام الأبيض ينبثق من حضنك ويرفرف بلا انتهاء في حقل متكاثف بالحَلْفا والهيش والصبّار الشائك ينشع فيه الملح حِلوه العروسة دا الكلام بهَداوه والمسك والعنبر طَلَقْنا هُو لِكْ بخورْ التَفْتْ ببطنِكِ العاري أذرعُ البخور، هفهافة وشفافة، أذرع أخطبوط تتموج بالكاد مرئية بالكاد محسوسة بالكاد وسقطتْ من على كتفيك الطرحة والشال، بحيّاتها المتلوية وشراشيبها التي تفح وتترقرق يا امّ الجدايل يابيضة وتصفّق البنات في المصطبة الهادئة على ضربات الطبلة يامّ الجدايل ونهودها رمّان جناين وشعورها نازلة خمايلْ وطيازها بطيخ جزايْر والحلواني تهانُفُ الضحك المكبوت من البنات وخضرة تكركر

بالقهقهة الصُّرَاح، بالصوت الناعم الحيّاني الحلواني، تنسلّ من بين فخذيها القانيتين اللتين تتهشمان فجأة بصوت قرقعةٍ جافة وتسقطان كِسَراً وكِسَفاً طعمهما في فمي حادٌ الحلاوة يجعلْ سنينك ع العريس بهَدَاوة.

حلمة الثديين بزّخشبيّ بارز يطُ من عرق النبْق الخشن والخدّ صفيح معدنيّ مصقول أما الفرج فهو كوز مقطوع مفتوح التجويف بطنها مقوّر منجور من شجر الجميز المخطط بفتائل من الشعر الرقيق المتموج متداغمة في لحم الخشب، أزيز النحل طنين محركات العربية الپاكار هدير اللوري الثقيل يشق اللباب والعباب بصوت آليّ رتيب وبذيء أسلاك الوَجْد لامقطوعة ولا ممنوعة، يجعلْ سنينك على العريس بحلاوة.

أما العريس فقد حنى رأسه وابتسم، يصغي للأغاني والطبل ويرمق الرقص بنصف عين ويلعب بصرة بنصف عين مع جدي ساويرس، وجورجي العريف يتابع اللعبة بأذنيه، رميت إيه يافانوس ياخويا؟ طلع لك إيه يابا ساويرس؟ حاسب ياخويا على نفسك نباح الكلب فجأة تحت شجرة النبق الهائلة التي ترمي بفروعها علينا وتجعل الساحة أمام بيتنا مخوفة ومعتمة.

ومليت له الجُلّة من لبن البَجَر ولاعايزه الجُلة ولالبن البَجَر ماعايزه إلّا انت ياضيّ الجَمَر. . ماعايزه إلا انت ياضيّ الفانوس. . .

يافانوس يافانوس رأسك المقطوع يدور في حلقة الشمس البازغة من ماء النيل وسالومي ترقص لك في غلالاتها السَّبْعِ المفهفة جسمك المقطوع يسكنه روح القدس في كنيسة العذراء على رأس

ساحة الحُفاة ساحة العُراة ساحة المضروبين وأبونا اندراوس يقدس عليه يرش ماء من جرن المعمودية الرخاميّ الضخم الذي من ثقله غارت أرض الكنيسة تحته قليلاً وانشرخ خشبها العتيق.

دا كيد النسا كيدْ يتحزّموا بالحَنَش ويتعصّبوا بالعجَارِبْ. .
كم أفتقد لسعة الشمس المحرقة وثمرة الخرشوف
واحطّك في شعري ياخويا واضْفَرْ عليك
أحطك في عيني ياولد واكحّلْ عليك
وبين بزازي ياخويا واتجمّطْ عليك
كم أفتقد ضربة الثعبان في قلب اللوتس
وبين فِخادي ياجَدَع واتحزّم عليكْ
وانْ جَتْني أُمّك تدوّر عليك
لاحْلِف بالأمانة ماجا عندنا

صوت خضرة قد ثمل من الخمر قبل أن تشرب فما بالها عندما تتجرع الكأس مترعة بالنشوة. قامت الآن، تركت الطبلة لرحمة فتغير إيقاعها على الفور إلى قَطْرٍ رقيق متباعد الموسيقات وتمايلت وتمشت ورقصت ولعبت وجاءتني واهتز بطنها أمام ناظريّ بحركة تشارف على البوح ولاتقارفه، شخصتْ إليها الجماعة الصغيرة والتذّوا بمعاينة فنون رقصها وشؤونه. حدّق إليها فانونس كأنه مسحور قالت لهم بلسان مُبين فصيح هل هذا مليح؟ قالوا نعم يا سيدة الملاح كل ما تفعلين مليح ثم قالت وهذا الذي أعمله أحسن منه يا سيْادي وفتحت ذراعيها فإذا لها جناحان عريضان لهما ريش متكاثف وحريريّ وطويل وناعم الأهداب وطارت أمامنا وصارت على قمة شجرة النبق العتيقة

ثم قالت: فإذا جاء العاشق المسكين وطالت عليه أيام الفراق واشتهى القرب والعناق وعصفت به عصفاً زوبعة الأشواق فليجئني إلى جزائر واق الواق. ظللتُ أخوض البحار وأخترق الآفاق وما من مرسى لي، رقصٌ، وليس ثمَّ تلاق.

رقص المرأة، وقوعها في فضيحة، بهذا جاء تعبير المنام. رقصة مَرْأتي لم تتم فصولاً أما رقص قلبي السجين فهو دليل الخلاص من أغلال العشق فهل يعرف أبداً كيف يرقص أم يبقى مغلّلاً بالأصفاد إلى أبد الآباد أي إيزيس خضرة رحمة رامة لندة لوريس نِعْمة في أيكنّ يتعينّ عشقي حوريّاتي السبْع المحلّقات في أصقاع سماء روحي التي بلا أفق محددٍ قطّ مفرودات الأجنحة هل وجدتِ ـ أنت الواحدة المتكثّرة ـ ذلك المفقودَ من بين أربعة عشر مُغْرَقة في أصقاع جسد كيمي هل بعثتِ الحياة في العظام وهي رميم؟ وإذ تعودين إليّ، تعودين باستمرار، باستمرار، وأنت تنهجين من رقصة الشوق والشبق غير التامة أبداً رقصة الدمار تحت موسيقى وحشية حمولات آلاف الأطنان تفجرات ماحقة الايقاع صرخات ١٧٠ ألف طفل ميتين من الكوليرا والجوع قرقرة ماء المجاري الملوثة باسم التحرير كم رقصة الكذب سهلة وفعالة تغور الأرض بعمائرها ويعود صمت الأطلال يا طلولاً لرامةٍ دارسات لادثورَ لكِ قطّ في روحِ العاشق المدنف تظل تطيح به غوائلُ الهوى بلا انتهاء ثقل الهدوء لايطاق.

جْميصي دابْ يامّه ونهودي بايْنة مِنّه.

بكَره السُوج ياضيّ عِنّيه واجيب لك أحسنْ مِنّه.

أنياب الألم المكتوم مازالت تنهش ومازلت لا أقدر أن أئنّ ولا أكتم الأنين عظامي قد تهدلت وانطوتْ خِرَق القماش القديم.

أيا شعرِكْ سَلَب جَمّال وأنا أبيع روحي

أيا وِراكِك عواميد رخام وأنا أبيع روحي

أيا بطنك عجين خمران ونهودك فحول رمّان

والسُرّة جَعْـر الفنجـان.. والسُرّة.. جَـعْـر الفـنجـان والسُرّة.. والسُرّة..

قامت المراكب تمخر الرياح والشراع معلّق مطوِيّ الجناح يهتز تحت العـاصفة بحـر النيل دفّـاق بخور العنـبر فؤوس تعزق الـتربـة وتقْلِب أيسوع منقلب الرأس عـلى ذراع أمه وقـد سقط من على الصليب بـلا قيـامة وعـلى وجهها تلك النـظرة المتأملة تتفحصني بحـزن، وبصـوت خفيض وحنون ـ كأنما تريـد أن تخفي عن نفسها ذلـك الحنان، كـأنها خجلة من نفسهـا ـ قـالت: يـاريت بسّ أعـرف إيـه الـلي بيـوجعـك ياحبيبي إيه اللي بيبعدك عني وعن كل حاجة؟

راقصات ماتيس في ساحة العُراة وبينهن المسخ الأليم منقاره مخلبي عينـاه كعيون السـمـك وقضيبه سنّ مشحـوذة مدبّبـة الشَبَاة وجسمهـا مبذول أمام دفقة النور من شباك مفتوح عليه ستائر هفهافة كأنمـا هي أيضاً نور قالت: كأنني أصنع الحب على قارعة الطريق وجسمها نـائم كـالحريـر، نور من نـور، أرى جـذوع الأشجـار القـويـة تنـطلق من الأرض كأنها عِمدان تطير في بحور الشهوة إلى السماء وفروعها الأثيثـة الخضراء تُـظلِلّ مكابَـدة العشق ولَجَج نشـواته يـداهـا تخفيـان رأسهـا الجميـل ينطوي وجهها تحت الطرحـة المسدولـة على شعـرها الممـوّج

المهدول كالليـل الذي انقضى الآن لتـوه يقظة الفجـر محرقـة لا تنتهي حريقاً.

كانت خالتي وديدة وهي العروس المنتظرة تشارك في الغنـاء بتحفّظ وتحرُّز محسوب، لا تـريد أن يفضحهـا الفرح ولكنـه، الفرح، يـطفح من على وجهها ويفيض، كأنما على الرغم منها، وعيناها تلمعان، بينما خالتي سارة قد بلّت الشربات، تقـدمه للخـطيب والخطيبـة، كلاهمـا محبوب وكلاهما خائن، وللضيوف والمدعوات، تدور به على المصطبة، في كؤوس رفيعـة طـويلة رقيقـة الـزجـاج مسحـوبـة الخصر مـذهّبـة الحـوافّ، في ضـوء «الشيـخ عـلي» المصفـرّ المتـذبـذب بـظلالـه عـلى الحيطان.

كـان أبـونـا أنـدراوس قـد جـاء بعـد ظهـر السبت، ومعـه المعلم جورجي، والولـد بـرسـوم الذي لبس تـوشيحة الشمّاس القانيـة على جـلابية نـاصعة البيـاض، بخّروا البيت كله، وتـرنم المعلم بـتراتيـل التمجيد والتسبيح والتبريك، يسانده برسوم.

فتح أبونا أندراوس دفتر الحكومة الكبير وكتب فيـه محضر الخطوبـة وسجـل الأسـماء. كـان في البيت عمي أرسـانيـوس - أبو العـريس - وعمي سلوانس وابنتاه لندة ورحمة، وابن خالتهما أسعد أفندي، وكان فيه خالي ناثان، وخـالي يونـان الكبير الـذي جاء من اسكنـدرية عـلى الظُهرية، أوقف التاكسي الذي يشتغل عليه أمام البيت في الوسعايـة، تحت الجميزة.

وقفنا في المصطبة المكشوفة وراء أبونا أندراوس الذي بدأ بـاسم ربنا يسوع المسيح مخلّصاً نُتمم خطوبة الابنة المباركة وديدة بنت ساويـرس

وأماليا، على خطيبها الابن المبارك فانوس ابن أرسانيوس وفكتوريا، مصلين قائلين معاً: أبانا الذي. . .

عندما رفع رأسه وذراعه اليمنى يصلّي بصوت خفيض صلاة الرب سريعة ملهوجة لا يكاد يسمعها أحد سقط كُمّ جبّته السوداء الواسعة عن ذراعه، وبان وشم الصليب الأخضر المورق الكبير على رسغه اليمين وكنا نساوقه ونجاويه أيها السيد الحقيقيّ كلمة الله الأزلي الوحيد يامَنْ خَطَب النوع الإنساني للفرح الأبدي؛ ثم تمتمَ بسرعة وآليّةٍ تقريباً بتجسده المنيف المجيد؛ ارتفع صوته الأخنّ قليلاً نبتهل إليك ياوحيد الأب هاتفين اللهم أَفِضْ من سحاب رضوانك غيوث فضلك وامتنانك، ويسِّرْ بما احتفلنا لإنجازه في هذا المقام ومُر لمشروعنا هذا بحسن البداءة وحميد الختام؛ هبط صوته فجاء وراح ينساب مغمغماً لايُفهم حتى هبّ بالإنشاد فجأة ليكون خطبةً طاهرة شرعيّة ومقدمة لمصاهرة فاخرة مرعيّة من أجل لين الخطيبين بمصاقل التهنّي والحبور، هَبْهما محبةً سليمة متبادلة؛ هبط موج الدعاء ثانية وترقرق غير مستبين حتى صعد موجه خاتماً أنعِمْ عليهما بتمام السرور ومتّعْهما في ميقات الحبور بمهرجان الإكليل آمين أبانا الذي. . وهو يرش الماء المصلّى عليه والمقطّر بقطرات من زيت الميرون المقدّس على رأس خالتي وديدة، على رأس عمي فانوس، على باب البيت وعلى العتبة الرخامية القديمة المنقوشة بحفر رسوم غائرة وكتابة بالخطّ الهيروغليفي أمّحت الآن من وقع وزحف الأقدام واحتكاك الباب الخشبي العريض.

فهل سمعتُ عمي فانوس عندئذ يهتف ملتاعاً وبصوت

مكتوم بوبيللو بوبيللو اسمك نجدتي إذ ألقي بنفسي إلى البحر اللُّجّيّ مشيّعاً بالصلوات والدعوات بالقبطي والعربي؟ هل قـذف بنفسه الآن من صخرته السمراء وديعة السطح يانعة فيها وحدها نجاته ومرساته؟ لم يعـد ممكناً الآن أن يصعـد إليها ثـانية، أبـداً. سقط بينـما تـراتيـل التبريك تصعد حواليه.

ثاني يوم الصبح جاءني ولد من أولاد حِميدة الزُّغْراني، فـلّاح عزبـة «أبو داود» وفراش مكتب عمي فانوس على وجه التقريب ومعه الحـمار الأبيض الفاره الذي يركبه عمي فانوس في ذهابه وعودته من العزبة.

كان يمسك حساباتها ويتولى نظارتها ويشرف على زراعتها.

لقيت الولد ينهج وهو يقول إن الخواجا فانوس يريدني الآن.

كـان بين الـطرّانة والعـزبة حسبـة نُصّ ساعـة بالـركوبـة القـويـة النشطة.

ولكني كنت أتحين كل فرصة لركوب هذا الحمار الفخم والانـطلاق به، كان عالي الصهوة عـريض الصدر وحسن الـطهمة ولمّـاح الذكـاء أيضـاً، وما إن أمتـطي ظهـره حتى يحمحم كـالحصـان ولكن بصـوت أجش، أغلظ معـدناً، كنت أعـطيه حَشّـة برسيم أخضر ومـرعـرع، أحياناً، عَ الْمغربيّة، بعد عودة عمي فـانوس إلى البيت، جـارنا الحِيط في الحِيط، وكان يتعرفني.

انطلقتُ على ظهر الحمار، دون تورّع، ألكز جـانبيه بقـوة وتتابُـع، ممسكاً بلجامه مسكة هينة ولكن حازمة، والحمار الأصيل يرمح بي على جسر النيل، رافعاً رأسـه بشموخ، والهـواء يئزّ في أذني، والـتراب قد

عفّـر الواد خَلَف جِيـدة الـزُعـراني الـذي يجـري، دون كلل، ورائي بمسـافة غـير قليلة. ويبتسـم في تحدٍّ كلما نـظرت إليه، وسـوف يلحقنا بالتأكيد.

سلّم علـيّ عمي فـانــوس بيـدين محنيّتـين، اللون الأصهب البُنّي الخفيف جداً يتوزع عـلى الكفّ والأصابـع توزيعـاً رقيقاً بـين البياض الذي تخلّف عن طيّ اليد والأصابع عند التحنية. لم أكن قـد شهدت تحنية العريس.

وقال لي معلهش يابن خالي (لم أكن ابن خالـه طبعاً، كان ابن أخي جـدي سـاويـرس، عـلى التقـريب، أبـوه كـان ابن عم جـدّي عـلى الحقيقـة، وكنت أقول لـه «عمي» على سبيـل التـأدّب) كنت عـايـزك تَضيَبْ لي الحِسبْتين دول (كان يلثـغ قليلاً في الـراء) وتبيضهم لي على نْضيف، لازم أخلّص دَفْتَيّ الأستاذ دلوجتي أهُوه، داود بيه مستعجـل عليه.

استغرقت مني المهمّة ساعتين تقـريباً، في المبنى المعمـول من الطين اللبِن الـذي كان الفـلاحون يسمـونه «المكتب» يهبّ عليـه الهـواء من النيـــل مبـاشرة. الـــطراوة وحـدهـــا كـانت تسْـــوَى المشـوار، ومللَ الحسابات، ولكني أيضـاً أخذت فيهـا حِتّة بخمسـة، بحالهـا، لامعة وفضيـة وكبيرة، بعـد أن تمنّعت قليلاً وعِيني فيهـا، قال لي: داخْله في الحسابات يابن خالي، ولا على بالك، خمسة صاغ مش حتحشّ وسط داود بيه.

وتغديت معه، شوينا عشر بيضات على قوالح الذرة الجافة المتقدة، وجبنة قريش ورِجْلة جـايّة طـازة من الغيط، غسلناهـا بماء النيـل من

الـزير وكـان طعمها حـريفاً وخشنـاً جداً، نيئـاً، على لسـاني، وحلّينا بجوافة زيّ العسل. قال لي معلهش يابن خالي، بصلة المحب إيه.. مانْتَ سِيد العايْفين.

بعد الغداء استرخينا في ظل حائط «المكتب» من الخارج، على فرشة من عيدان الذُرة وسألني عمّي فانوس، باستحياء، قليلاً، عن خـالتي سارة.

حكيت له، باستمتـاع، كيف ذهبتْ معي خالتي سـارة إلى روضة الكـرمة القبـطية الأرثـوذكسية، لأول مـرة، أول يوم، وكـانت الدنيـا ماطرة وموحلة، ولكن منصور أفندي ناظر الروضـة قابلني كـما يقابـل الـرجال، هـل كنت في الخـامسـة؟ ربمـا؟ وأحببت، من أول نـظرة، كعادتي، مس كاترين شمعية الوجه ملائكية النظرة، وعرفت أن أقول وراءها كانت مات ران مان على صور قطة وحصيرة وولد يجري ورجـل يلبس قبعـة هـات، وحكيت لـه أيضـاً كيف كنت أستيقظ مبكـراً، عَ النجمة، في بيت شارع ١٢ الذي أمام الطاحونة ومدرسـة البنات، وأتسلل في البيت النائم الهادئ المليء مع ذلك بأنفـاس حارّة، وأذهب إلى غـرفة خـالتي سارة وخـالتي وديدة، وأنـام بينهما، سـاعـة الصبـح البدري، في سريرهما، وأروح في النوم.

وكان يصغي إليّ بقلبه، كله، وكأنه نسي الخطوبة وقربان قلبه.

خجلت مع ذلك أن أقول له كيف كنت عنـدئذٍ أرقب، مسحـوراً، طقوس تحضير الحلاوة، وتلميع السيقان الأنثوية الأربعة، كيف تُعمل بالليمون والسكر وتوضـع في الطاسـة على وابـور الجاز، نـاره واطئة، وتُقلّب حتى تصبح عجينة طيعة ولدنة ومطاطية.

تماسكت العجينة الآن واشتد قوامها، وبُسِطت على البلاط النظيف اللامع، في الممر الضيق بين السريرين، أمام الشباك المفتوح، وأنا لابد تحت أقدام السرير. بردتْ العجينة الآن، ثم نزعت كل واحدة منها حتتها، وبدأت تشتغل عليها، تطريها قليلاً بتفلة صغيرة، رشيقة ومضمومة، من الفم المزموم، ثم تمددها بالتربيت السريع المتلاحق على السيقان المفرودة المكشوفة حتى أعلى الفخذين، ثم تُنزَع فجأة مرة واحدة وبقوة «فلوپ». . «فلوپ». . لون النسيج الأحمر، والأسود، في نهاية الساقين، محبوكاً بوثاقة، يتخايل، يشرق في نور الشباك ثم يعتم مع حركة البسط القبض التمديد البطيء للحلاوة والخلع المفاجئ الخاطف للعجينة وقد تعكر الآن لونها الطحيني قليلاً، وكانتا تضحكان من لسعة انتزاع الحلاوة من على اللحم القوي المتماسك الذي يحمرّ ويلمع ويبدو ندياً وشديد النعومة. تذكرت الصوت اللحمي الذي يتراوح، التصاقاً على السيقان وافتراقاً حاداً عنها، وهما تشهقان.

كانت عجينة الحِنّة البغدادي، ليلة أمس، تنطبق على يديْ خالتي وديدة وقدميها، ثم تُنزَع عنها بنفس الصوت تقريباً، ونفس الايقاع، تشاركها في الحِنّة، والفرحة، لندة ورحمة وخضرة، وبعد أن فرغن منها، كانت حميدة البرصا تعالج انطباق الحِنّة على يديها وقدميها، بنفسها، وحدها، ودون أن يساعدها أحد.

وأنا أدخل لأنام. في آخر السهرة، سمعت جدي ساويرس، من وراء الغرفة الثانية:

ـ أهُوه ياستي ربنا تاب على المعلّم جورجي، كَنّ في دار جِنينـة من يوم ماجّـوّز، هُوّة وأخـوه باسيـلي، ياوِلْـداه، من نهار ما وقعت عليـه حيطة الكنيسة وهو ما بيحطّ منطق، طبّ، ساكت، ولا هو قادر حتى يجر رِجْليه أو يشيل إديه.

لازم يتشـال ويتحط زيّ الـطفـل يـاوِلْـداه. هيٍّ كـمان كنُتْ فـي البيت ماحد سامع لها حسّ.

قالت ستي أماليا:

ـ آه.. كَنّتْ والاَّ مَنّتْ.. قال إن كانت الميّه تروب تبجى الجحبة تتوب. بكره نشوف.

ردّ جدّي ساويرس:

ـ يامّ يونان اتّقي الله في الوَلايا. دانْتِ عندك وَلايا برضو.

فقالت جدتي: سامحني يايسوع.

غضبتُ مـع ذلك من ستي أمـاليا، وثقـل قلبي. كنت أحب ست حنينة.

ودخلت الغرفة التي كنت أنـام فيها، مـع أخواتي البنـات، وخالتي سارة.

هي الأولى مـا بعد المصـطبة، تليهـا غـرفـة جـدي وجـدتي، وفي مقابلها، عَبْر الحوش، زريبة البهايم، ليس فيها إلا الجاموسة مـبروكة والوزّة نعيمة أيضاً وذراري البط الصغير والكبير يتدأدأ في النهار لغايـة الترعة، ويعود عند الغروب، ليس له اسم ولا قائد والفـراخ. وكنت أحبّ رائحة الزريبة وخصوبتها.

كنا ننام، كلنـا، على سريـر عريض عـالٍ مبني من الطوب النيء، تحتـه فتحة الفـرن مسدودة الآن ونحن في الصيف، تـوقـد في الشتـاء لتدفئ الغرفـة. وصعدت إلى مكاني المألوف بين خـالتي سارة وأخـواتي النائمات، على المرتبة الكثيفة الطرية من قطن الغيط المدكوك مباشرة، نور «الشيخ علي» لا تكاد ذبالته تبين من طاقته المحفورة مخصـوص في الحـائط تحت صورة العـذراء التي حفّ بها هبـاب خفيف من اشتعال النار الوطيئة في المصباح المعمول من كوز صفيح، ذبالته الآن مدخنـة محترقة عـلى سطح الجـاز القليل ولهـا رائحة نفّـاذة خافتـة، في وخامـة الغرفة وثقل هوائها الذي يفوح مع الليل بأنفاس عطرة قليلاً من الحلبة المخـزونة ومن قفف الخـزين الأخرى: البتّـاو الصغير الجـاف وفـوقـه طُرّاحات خبز الذرة، المش الرقيق واسع التدوير، الفـول، والعدس، والذرة، زِلَع الجبنة القديمـة، والمشّ بالشـطة الحرّاقة، مغطاة مكبـوسة بجواليص الطين والخِـرَق الجافّة، قُدُور الحـامض، والعسل الأسـود، الزبدة المرشوش على سطحها قليل من الملح، القدور سوداء، مـدوّرة البـطون، مصفوفـة على الأرض، تخـايلني بأوهـام الليل، وروائحهـا المختلطة والأشباح التي تتلبسها، مخامِرة ولكن غـير مهدِّدة، وفي آخـر الغـرفة صنـدوق الهدوم الـذي أضع فيـه جنب ملابس خـالتيّ سـارة ووديـدة، وأختي عايـدة وهناء، مـلابسي القليلة: الجلابيـة الأخرى، غيارين تلاتـة، والبدلـة التي أروح بها المـدرسة وأسـافر بهـا، چاكتـة صوف إنجليزي والبنطلون الشورت البُنّي، مع حبّات النفتالين.

القلق واستثارة الرقص والغناء، وطقوس الصلاة، والجِنّة، لم تدع للنوم إليّ سبيلاً سهلاً، مع أنني كنت نعسـان جداً، أحسست خـالتي

سارة إلى جانبي في العتمة الليلية الملتبسة تتنفس بصعوبة، لم تكن نائمة، كنت أنا أيضاً غضبان لها. قلبي معها في محنتها التي دارتها بل كتمتها بشجاعة وبراعة طول اليوم وليلته، الآن ارتدّت عليها. لكني كنت أيضاً فرحاً لخالتي وديدة التي ذهبت تنام مع جدي وجدتي في الغرفة الكبيرة الثانية التي فيها صومعة الغلة الكبيرة العالية، مسدودة سداً محكماً، تُفتَح فيها ثغرة صغيرة لاستخراج ما يكفي للطحين، كل مرّة، وتُسد ثانية، بالطين المبلول القوي، على الفور، بعد أن تسرسب الغلة.

بعد الغارات العنيفة التي تهدمت فيها البِياصة وباب سِدْرة في اسكندرية ـ التي اشتقت إليها الآن ـ جاءت امرأة خالي إستر وأولادها، وأخذوا هذه الغرفة، وذهب جدّي وجدّتي وخالتي وديدة وخالتي سارة في بعض الليالي، ينامون على المصطبة، في الهواء الطلق.

كان خالي يونان يأتي كل يوم سبت يقضي ليلتين مع امرأته وأولاده، ويسافر صباح الاثنين وراء أكل عيشه.

قبل الفطار صباح الأحد، بدري، تفتح خالتي إستر الباب الذي ظل مقفلاً عليهم طول الليل، وتقذف بطشت مليء بالماء والصابون على أرض الحوش، أمام باب الغرفة، تصنع بِرْكة صغيرة سرعان ما تنشف، وتخرج على الفطار وجهها المدوّر يشع رضىً وجمالاً وبهجة، وقميص نومها الساتان الأزرق اللامع الذي يكشف عن أعلى ذراعيها ويفتح عميقاً عن صدرها المليء، تضع عليه الشال الأحمر الداكن الخفيف المخرّم، من باب التحشّم على الصبح في حضرة جدي

ساويرس، ولكن ثنيات قميص النوم تترك خطوطاً لا تمحى في القماش اللامع، تلفّ تحت البطن كامل الاستدارة.

وكنت بالليل، من الغرفة المجاورة وعبر الحائط الطيني، أسمع أصواتاً، تراودني في نصف حلم نصف يقظة، مكتومة كأنها أنين أو حمحمة. وكانت حكاية ستّ الحسن والجمال التي سحرتها الغولة بقرةً حلوباً تئنّ بالليل وتطلب رَجُلها الذي يفكّ الرَصَد ويفسد العمل، تعمر ليلتي وتملأ خيالاتي.

أنظر إلى سقف الغرفة البعيد المعتم تتراوح عليه الظلال والظلمة.

عوارض الخشب التي تسنده سوداء قاتمة السواد من الناحيتين، عندما تنزل تستقر على طرفيْ حائطيْ الغرفة: الحائط الخارجي للبيت كله الذي يلاصق بيت آبا أرساني، والحائط الآخر الذي يطل على الحوش، فيه شباك واحد ضيّق له ضلفة خشبية مسدودة واحدة، تُغلَق من الداخل بترباس حديد صغير مدوّر وصدئ صعب الحركة.

وكان الشباك مواربأ الآن، الليلة حرّ، أرى منه شقاً من سماء الليل، ونجومها الكثيرة يقطعها سعف النخلة الواحدة السامقة التي قال جدي ساويرس إنه زرعها بنفسه وهو شاب فتيّ، من خمسين سنة أو أكثر يمكن، بعد هوجة عرابي بعشر سنين، يمكن.

همست لي خالتي سارة: لسه صاحي يابْني ياضناىَ؟ وأحسست ذراعها تمتد إليَّ تحتضنني، وكان بين ذراعيها أمان من القلق وهدهدة لاستثارتي، وتأكيد لي. كانت جلابيتي مرفوعة على رجلي وأنا أنزلق إلى أول النوم، نعومة ساقيها تعيدان إليّ نعومة العالم وطمأنينته. لويزة

بنت المعلم شنودة البقال أراها تعطيني حُقّ الدخان أبو غزالة لجدّي ساويرس، بعد أن كنت قد تهت في الليل أبحث عن الدُكان ولا أجده، ورعب التّيه والفقدان يوقف القلب ويخطف النَفَس، عندئذ وجدتها فجأة، في عينيها معابَثة، وعمق الصبيّة الفلّاحة التي خرطها للتوّ خراط البنات، و. . تعرف. . صدرها صغير جداً مازال ولكنه قائم وصلب ومخروطيّ تحت فستانها الملوّن المشجر رقيق القماش هل تلبس شيئاً تحته؟ نهداها النابتان مقتحمان، وساقاها رفيعتان ولكن تبدوان مسحوبتين برشاقة من تحت الفستان، وهي تطلع على الكرسي الخشب الواطئ ذي الأرجل الثلاث السميكة الذي عمله خالي سوريال، وتمد ذراعها لتأتي لي بعلبة الدخان من رفٍ علويّ، ضحكتها مبحوحة إذ ترفع رأسها تلقيه إلى الوراء قليلاً بحركة دلٍّ بناتي، فينزلق المنديل الأحمر المعقوص في مؤخرة الرأس، ويبين الشعر الأكرت البُنّي والضفيرتان المجموعتان معاً في لفّة مكوّمة غير محكمة، أعرف ـ أو يُهيأ لي ـ أنها عندما تفردهما تصلان إلى ما فوق ردفيها الململومين المضمومين أحدهما إلى الآخر، هما بقلّة لحمهما نفسه، مثيران.

الطرّانة في ١٩٤٣/١١/٢٢ حضرة الأخ المحترم أبو أمين لا عدمته أقدم لحضرتكم وللست سوسن وللأستاذ والآنسات العزيزات سلامي وأشواقي الكثيرة متمنياً دوام الصحة والرفاهية وبعد كنت بدمنهور من يوم الأربع وحضرت منها يوم السبت وتقابلت مع زوجتنا وديدة بمحطة ايتاي البارود وصلنا البلد سوياً بسلامة الله وبركة يسوع عرفتنا كريمتنا سعدية عن احتفالكم بها وإكرامكم لها حال وجودها بطرفكم

وأنها قضت طول مدة إقامتها بـالاسكندريـة عندكم وكـانت مبسوطـة جداً وإني واثق في شهامتكم فأنتم أهل لذلك وتجدني شاكر لأفضالكم الكثيرة ومحبتكم الخالصـة وشعوركم الـرقيق ولاغرو أنـه عندمـا كان الأستاذ نجلكم طرفنا في الطرّانـة وعزبـة داود كان مثـالاً يحتزا فـذاك الشبل من ذاياك الأسد ونسأل المولى سبحانه وتعالى أنه لا يحرمنـا من مودتكم من هنا وديـدة وسعديـة بنتنا والست أم يـونان والأنسـة سارة وقبلنا جميعاً عمي ساويرس وجميع العائلة بخير ويهديكم أزكى السلام نرجو الإفـادة عن الحالـة عندكم وعن استمـرار الغارات من عـدمه، وعن صحـة الأستاذ ونجـابته في دراسـة الهنـدسـة بـرعـايتكم وذلـك للاطمئنان أخيك المخلص فانوس أرسانيوس.

شهر واحد قبل أن يموت أبي في ديسمبر من تلك السنة.

ستتان، أو ثلاث؟، بعد أن تركت الطرّانة في آخر الصيف.

فحل الثور يخرجونه في مَيْعة الصبح من زريبة خـالتي روزة وخالتي سـالومـة، وضعوا لـه إكليلاً من عبـاد الشمس الأصفـر حـول رقبتـه الغليظة. حجازي زوج خضرة القصير المدموك يجر سَلَبتـه بقوة، حتى إذا جاء تحت النبقة الضخمة كانت بقرة الشيخ علوان مربوطة في وتد خشبي متين مدقوق بمسامـير غليظة في جـذور النبقة، تتملمـل وتخور وتنوح، تطلب العِشار وكأنها خائفة منـه في الوقت نفسـه، عيال البلد اتلمّوا في حلقة واسعة، الرجال فَزّوا فيهم الآن فسّخْ ياواد انت وهوه فسّخْ يابن هنّومة، شوف ياخويا الواد مِتّنح ازاي، الفحـل هبّ فجأة ولكنه لم ينجح، سقط ودار بخطمه الذي يرشـح بخيط متصل كثيف من السائل الأبيض، وهجم وهو يجأر بعنف، واستدار، ولكن السلبة

المفتولة في يد حجازي وأخيه عوضين وقد ثبّتا أقدامهما بالأرض بكل ما في متّتهما من أَيْدٍ وقوة، أبقت الفحل في حدود دائرة لا فكاك منها يخبط قرنيه بالأرض ويرفعهما، عاد وشبّ مرة أخرى واشتبك، تجمد لحظة في ذروة الالتصاق والولوج غير المرئيّ تقريباً، هبط صمت ملهوف على لمّة الرجال والعيال والنسوان اللاتي أخفين وجوههن وراء بيبان البيوت، يتهانفن بضحك مكتوم، ثم ارتفع التهليل مرة واحدة، بالتكبير والهيصة والضجيج، هيه.. هيه.. يه، الله أكبر أهو كده ياوَلَه.. فحل ابن فحل!

تململت وأنا نائم، رائحة روث جاموستنا، حارّة وخصيبة وبشرية تقريباً، تهبّ عليّ من النافذة نصف المفتوحة.

القرد العاقل الحكيم يقف منتصباً على قمة كوم بوبيللو شاهقة الارتفاع، وكأنه حاضر معي على الأرض، أراه قريباً جداً بكل جسامته، وابتسامته الحكيمة وعقوده الفيروز، يحدق إليّ بعينين فاهمتين وصارمتين، أعرفهما، هالة النور تدور حول رأسه، شعره مسرح ناعم بالبريّانتين، ينظر في مرآة مكسورة، أكاد أمدّ إليه يدي. متضرعاً شاكياً؟ أم ممتناً ومشارِكاً؟ حلقة الأشعة الباهرة تدور تلمع تومض تتقلب في دورانها حول الشعر الكثيف.

الشقافة السميكة خضراء الزجاج مرشوقة على سور السراية التي كأنها تنبثق من قلب بوبيللو أو تأوي في داخله، وكأن أشجارها الكثيرة قد اختلطت بحجارته، مهدِّدة، طاردة. تنفتح فجأة خلف الكنيسة فجوة أرى منها فناء فسيحاً ممتداً إلى بعيد داخل أكوام الأنقاض وتراب القرون، أخشى أن أخطو إليه، ولكني لا أستطيع أن

أحجز نفسي عن الدخول، القرد يمد فكيّه المطبقين إليّ، أحس نفث أنفاسه الحارة على وجهي، قريباً جداً، ويقترب، ويقترب. . .

انتفضت نفضة واحدة.

يقظتي كانت صدمة حادة وسورتها عالية خاطفة، وقد انقذف لها جسمي كله للأمام. لم تحس بي خالتي سارة ولا أخواتي.

نزلت من على السرير ببطء وحرص، خرجت إلى نور السماء الليلية عميقة الزرقة، مثقوبة الجلد بإبرٍ مشعة لانهاية لها.

كان الحوش صامتاً، دفء الجاموسة، والفراخ الرابضة في الزريبة المقفلة يُشعّ عليّ، وأنا أذهب إلى الزير المرتكز على قاعدته الحديدية معوجة التدوير قليلاً، تحتها طشت نظيف صغير، يرشح إليه الماء النقيّ، نقطة نقطة، تاك تاك تاك، بلا صوت تقريباً وببطء شديد، عبر نَوى المشمش الذي يتخايل لي تحت الماء المصفّى خفيف الاهتزاز في قاع الزير، وأنا أدبّ الكوز، أشرب بنهم، عطشي أحس أنه لارِيّ له، ولا يقين فيه، حتّى.

٩ ـ ثمرة جافّة

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة، ظهراً.

مرّ الاكسبريس الطّوالي، يدقدق على الفلنكات من بعيد، وصفّر طويلاً، خَبْطُ العجلات على القضبان له أصداء منتظمة في أفق الحقول.

عندما قال لي المعلم جورجي هل ممكن يعني لو سمحت يا أستاذ، تمرّ على بيتنا؛ آتي له بالمسبحة الكهرمان التي نسيها تحت المخدة، ستّ حِنينة تعرف مكانها.

كان بيت الست حنينة ـ الذي يسكن فيه الآن معها زوجها الجديد جورجي، وباسيلي أخوه المشلول ـ في آخر البلد، وحده، بين جسر النيل العالي من ناحية، وغيط الست حنينة الذي يفتح عليه باب البيت مباشرة من الناحية الأخرى.

الساقية القديمة المهجورة تقع قبل البيت، بخطوات.

يعني كل الناس تعرف أنها مسكونة، وأنهم ـ كلامنا خفيف عليهم ـ يخرجون للمارّة في نصف الليل أو عزّ الظهر. العابر خَليّ البال يجد أمامه فجأة حماره الذي تركه يرعى أمام البيت أو في الحوش، واقفاً أمامه، بصمت واستكانة، من غير لجام ولا بردعة، كأنه ضل الطريق أو انتهى به التجوال إلى هذه البقعة، أمام الساقية بالضبط.

ويل له إذا ركب حماره، المألوف الذي يعرفه حق المعرفة. سيرتفع به الحمار فجأة، بسرعة خاطفة إلى أعلى، إلى أعلى، إلى أعلى، سيقانه

تـطول تطول، رأسـه يضارع شـواشي النخيل، ينهق وكـأنه يضحـك ضحكة الضبع، ثم ينفضه ويلقيه في قاع الساقية، لا قيام له بعدها. ولا مهرب له من على ظهر الجنّي اللئيم إلا بأن يغرس الواحد مـطواته بـاسم الأب والابن والـروح القُـدُس إلّـه واحـد آمـين، بـاسم الله الرحيم الرحمن وبقوة آية الكـرسي أو عدّية يسن، بين منكبي الجنّيّ - الحمار الشرير، وأنت تقرأ أبانا الذي، أو الفاتحة، وإلا وجدك المارّة، يعني وجدوا جثتك في بئر الساقية، ونحن جميعاً نعرف، ولكن الحادثة تُقيّد في محضر الحكومة قضاءً وقدراً. يعلل العمدة ذلـك أمام معـاون البوليس أو وكيل النيابة بالسقوط من جسر النيل العالي بـالليل، عـلى خشبـة الساقيـة الصلبة التي نشفـ عنهـا المـاء من زمن بعيـد، يعني، يمكن، في الغالب والله أعلم.

عمي جورجي كان يعرف عني تهوّري الصبيـانيّ - هل بقيتُ عـلى هذا التهوّر، حتى الآن - وأنني لا أتورّع عن تحدي الجن والعفـاريت في عـزّ الظهر، ولا أخشى المرور عـلى الساقيـة القديمـة، أو التوغّـل على الجسر الحجري الداخل في عرض النيـل حيث تطلع عـروس البحر، حورية الماء، بشعرها الأسود الغـزير المنسـدل على ظهـرها العـاري، ثـدياهـا القائـمان يومضـان ناصعـين من وراء خيـوط الشعـر الحـريـر الكثيف، تغـوي الرجـال، تخطفهم إلى العمق فتضمّهم إلى أزواجهـا الـلانهائيين عـلى طول الـزمن، لا يُعثر لهم عـلى جُثّة، إلى الأبـد، أو تظهر الجثة عند الكـوبري في إتيـاي البارود، أو عـلى شـاطئ إحـدى الجزر النيلية، منتفخة شائهـة أكل منهـا السمك. فنعـرف أنه خـاب معها، ولفظته.

كنا بالأمس جالسين تحت النبقة الكبيرة، حلقة واسعة من الرجال، جدي ساويرس، آبا أرساني، خالي ناثان وخالي يونان معاً، وعمي فانوس وأخوه الصغير برسوم، وأنا. كان معنا أيضاً حجازي زوج خضرة وعمّي ميلاد الذي يرعى زراعة جدي ساويرس.

خالي يونان يبدو نعسان مسترخياً، جاء من الاسكندرية مساء الجمعة متأخراً، وعلى وشّ الصبح سمعنا طَشّة الماء والصابون على أرض الحوش، واختفت امرأة خالي إستر التي أُحبها، ولم تخرج من غرفتها إلا على الضحى العالي. حضر الخطوبة، بالمرّة ووقّع على المحضر، وبارك للعروسين، وسوف يسافر غداً بعد الظهر إلى اسكندرية، يجري على قوته وقوت أولاده بالتاكسي الضخم القديم الذي يبدو لامعاً، رافع الخطم عالياً، كأنه لسّا خارج من الفابريكة.

وكنا نجلس كيفما اتفق لنا، على الشِلَت الموضوعة فوق الكراسي الواطئة، من عمل خالي سوريال؛ على المخدة الصلبة مرمية فوق جذع شجرة عريض مقطوعٍ من زمان، راسخٍ في الأرض، سطحه مسودّ ولامع، من جلوس أجيالٍ عليه من عائلات الطرّانة؛ فوق حجارة كبيرة بيضاء؛ فوق قطعة رخام منعمة الحواف عليها أثارة رسوم غائرة زائلة، هل جاءت من بوبيللو؟ أو جالسين على الأرض مباشرة، هو فيه أخْيَر من جُودة الأرض؟ دا الخَلْج كلّتها كَلِيلة م التّراب ولِلتراب..

كان خالي يونان شامخاً في جلسته، كِبْر ونُبلُ مَخضَر معاً، وسوف تخرج امرأة خالي إستر لتودّعه، تسلّم عليه بيد طرية صغيرة ومكتنزة، وهي تغضّ رأسها وتنظر إليه من تحت لتحت نظرة خاصة، بعد ليلة

أمس، نظرة هل فيها تملُّكٌ وتَرَّجٍ وامتنان ورضى وتحذير وانتظار معاً؟ وسوف تأخذه ستي أماليا إلى حضنها الجاف ـ الذي حنانه يسع الأرض ـ وتدعو له، كما تدعو لي؛ صحيح أن أعزّ الولد هو ولد الولد. ولكن في دعوتها له حرارة أعمق وهجاً، ربما، فقد خرج الآن إلى حوزة امرأة أخرى، تتمتم يحميك لشبابك ولولادك ومراتك ياخويا راضي عليك قلبي وبزّي وحجْري يابن بطني يايونان وأنا طاهرة وفاخرة ويسوع يقبل مني دُعاي بعدد شعر راسي وشعر بدني بادعيلك يايونان يابن أماليا تكسب وتربح والمسيح يرعاك في الرُوحة والجايّة ويجعل لك في كل خطوة سلامة وهي ترشم على رأسه علامة الصليب بسرعة وخفّة وكأنما بخفاء، كأنما تخجل من حبها لابنها البكر.

رفع ميلاد الإبريق الضخم المُسْوَدّ من الهباب، وهو يكتّ، ويغلي، من على النار المتراقصة في الهواء متصاعدةً بألسنتها مهتزة متراوحة القوة في الكانون المرتجل الذي صنعه في الوسعاية جنب جذع النبقة العريقة.

وصبّ الشاي، قاتماً، ثقيلاً، كُحْلٍ، في كؤوس صغيرة مخنصرة الوسط رقيقة الزجاج، على صينية نحاس عريضة، جاءت بها خضرة من عند خالتي روزة وخالتي سالومة، ونزل السائل الكثيف في الكؤوس وهو يرغي رغوة صغيرة وله صوت وشيش مليء.

كان طعمه مُرّاً حاذقاً حريفاً جداً وعطراً له نكهة قابضة للّسان، شربته مرةً واحدة حتى أطيق لذعته.

عمي فانوس يرفع رأسه الحليق في طاقيته النظيفة المكوية، فجأة، إذ مرت من أمامنا خالتي سارة بسرعة ورشاقة، بخطىً خجِلة وجريئة معاً، ناحية بيت آبا أرساني، وفي عينيه تلك النظرة الوامقة التي تعرف منذ الآن حرمانها المضروب وتسلِّم به ـ لكن لا تقبله ـ تخضع له وتعنو، لكن لا ترضى به.

سمعت لغط البنات وضحكهن المكتوم في خبايا البيت، كانت أختي عايدة وهناء الصغيرة جوّة أيضاً.

كان عمي سلوانس الصرّاف يحكي لنا عن حكاية حدثت في شبين الكوم عن سائق تاكس بالنفر، ممن يسافرون بين القرى والكفور، قتل شقيقته الصغرى ليستولي على مصاغها. قال إن الجيران سمعوها تتوسل وتصرخ، رأوها تسقط تبوس رِجْله، لكنه شدها إلى داخل البيت من شعرها وكتفيها، ظنوا أنها مسألة عرض وشرف، وأنه يغسل عاره، فلم يتدخل أحد. حطم رأسها بالمانفيللا، وباع المصاغ، وسافر اسكندرية، وأنفق المبلغ على رفيقته الراقصة، قال إن البوليس عرف اسم الراقصة، سعاد فهمي، تشتغل في فرقة ببا، بكازينو مونت كارلو في الشاطي.

نزل عليَّ صمت وحزن. كانت صورة الراقصة في مجلة «الاثنين والدنيا» مثار أحلامي الشبقيّة، فكأنها خانتني.

ولما جاء الدور الثالث من الشاي، حلو عسل وخفيف كأنه شربات، أدركت فجأة أنني لم أنتبه حتى للدور الثاني الذي أخذته من يد عمي ميلاد. دور وِسْطاني، نُصّ نُصّ في كل حاجة، في الثقل وفي التحلية على السواء.

كان آبا أرساني ينظر إلى حلقة الرجال بصرامة ومحبة، رقيق الجلد أيضاً يكاد يكون شفافاً، لكنه صلب العظام، وشْم الصليب الأخضر المورق على جانب جبهته يكاد يبهت الآن، بعد كم سنة؟ وجلابيته البيضاء المكويّة تشع نظافة وصحواً وبهاءً، رفعها قليلاً عن تراب الأرض، قدماه الناحلتان في شبشب جلديّ مغطًى، الطاقية البيضاء المدورة قائمة الجدران، من نفس قماش الجلابية طبعاً، انزاحت قليلاً إلى الوراء - كان يبدو سعيداً وراضياً جداً، آبا أرساني عندئذ - ترى لماذا؟ - وبان شعره الخشن الجعد، أملح ورمادياً مازال عفياً، قصيراً ومجزوزاً يعطيك حساً بفتوة باقية.

قال فجأة، بين رشفة شاي مستمتعة وأخرى:

- ألاّ جُوللّي ياساويرس. هو انت ماعدتش بتزور وَهْبه والاّ إيه؟

أحسست مفاجأة السؤال على جدي ساويرس.

قال: يوه يارْساني. ماكنت عنده في مصر من كام شهر.

- إزيّه دلوجتي؟

- كويّس. زيّ ما هُوّه. حيكون ازيّه يعني؟

كنت أعرف - من غير تفاصيل كثيرة - أن آبا وهبة، أخا ساويرس، في السراية الصفرا، في العباسية، من سنين.

وذلك كان عندي مكاناً له رهبة، بل مخافة.

كنت أتصوره صرحاً منيفاً مطلياً بالأصفر الداكن، مغلقاً بإحكام وله أعمدة وأجنحة شامخة، وفيه ردهات فساح يتمشى فيها أناس لهم جلال وهيبة لا يتكلمون ولا يجيبون على السؤال، وفيه أيضاً حبوس

مـوصدة بـالحديـد المشبّك وأنـاس فيها مكبّلون بـالأصفـاد يتخبـطون ويصرخون بلا مجيب.

وكانت حكاية آبا وهبة وكأنها شيء محـرّم، فلا يـأتي أحد بسـيرته، وحتى الآن ـ وقـد راحوا جميعـاً، منهم مَنْ آب إلى بوبيللو، ومنهم من أوى إلى تُرب الشاطبي أو المنيـا أو مارجِـرجِس في مصر القديمـة ـ لم أعرف قط ما حكاية آبـا وهبة بـالضبط، لماذا أُودِع العبـاسية؟ أكـانت حكاية نزاع على أرض أو توزيع ميراث، أو حكاية عشق وقتل قـديمة ومحـظور الكلام فيهـا؟ هل ثَمّ عشيقـة ووُرِي بليلٍ جسمُهـا المُهان ـ والمكرَّس معاً ـ الـذي يحمل آيـة العشق، دون قداس الجنـاز، سُدَّت عليها تربة لا اسم عليها ولا صليب، في بوبيللو؟

قالت لي أمي، مرة، بعد ذلك بسنوات إنها زارته في السراية.

قـالت إنه كـان وديعاً وهـادئاً ومشرق الـوجه كـأنـه مـازال فتىً في العشرين، أو كـأنه بـلا عمر ولا زمن، قـالت، وإنه عـرفها وسمّاهـا باسم طفولتها، ناداهـا: لبيبة دانت كبـرتِ أُهوه، واتجـوزتِ وخلفتِ يابتّ ساويرس؟ ربنا يخليهُمْ ليكِ. وسأل: إزاي أبوك أرساني؟ وأمك أماليا؟ قالت كان كالقديس.

وقال لها:

ـ بتبكي ليه دلوجتي؟ صعبت عليـك نفسك. . دا العمـر مافيهش غالي يالبيبة. جولي لهم في البلد مش عايز زيارات. كلهم معايا، لِيلْ نهار. وروّحي انت دلوجتي يابنتي، الله يباركِك.

ترقرقت عيناها بالدموع وهي تحكي.

مات أبا وهبة منسياً، بعد أن شارف الثمانين أو جاوزها، ولكنّه دُفن في بوبيللو، كما يليق.

تكفّل بذلك كله عمّي فانوس.

بعد أن شربنا الدور الثالث من الشاي، تلفّتَ آبا أرساني، عينه حادة وجارحة كالصقر مازال، ونادى على أختي عايدة، كان يؤثرها بإعزازه، يُفرِد لها مكاناً خاصاً جنبه في مجلسه، وفي قلبه، هل لأنها كانت صغيرة الوجه، سمراء جداً جعدة الشعر؟ وقال لها، تعالِي هنا يابنتي، يابنت الغالية.

كانت خجِلة أمام كل هؤلاء الرجال، ولكنْ شُجاعة غير متهيّبة.

قال: إجْرِي لنا شوية من ألف ليلة هو فين الكتاب يافانوس؟

قام ابنه ـ مطيعاً ـ وجاء بالكتاب من جوّه البيت.

قال: احنا وَجّفْنا فين البارحة يابنتي؟

قرأت لنا عايدة بصوت ناعم خافت لكنْ شديد الوضوح وواثق. ولأنني كنت أكاد أحفظ «ألف ليلة وليلة» عن ظهر قلب، كما يقال، عرفت أنها تجاوزت، دون خجل ودون تردد، تلك المقاطع التي تذكر الأشياء بأسمائها الصريحة، كأنّ ذلك من باب اللياقة فقط، كأنها لم تحس في تلك المقاطع بذاءة أو تجاوزاً، واستمرت في القراءة.

مازلت حتى الآن، بعد نصف قرن تماماً.. ياه.. أفتقد لثغتها الخفيفة وصوتها الخاص، ويهتز قلبي لفقدانها، الأخت، القرينة، أنا الأخرى التي لاعوض عنها، طبعاً، في أيّ أحد.

عـادت خالتي ســارة ومعها لنـدة ورحمة يمـرقن من أمام الـرجـال، عائداتٍ إلى بيت جدي ساويرس، خافضات الرؤوس يـرمقننا بـأعين بريئة المكر. واحمرّ وجه عمي فانـوس. كان سريعـاً إلى التضرُّج وظل حتى الآخـرِ وخاصـة عندمـا يشرب قليلاً تـرتسم على عـظمتيْ وجنتيه بقعةٌ محمرة ومُنعِشة تحت جلد وجهه الرقيق المشدود، تتسع حتى قرابة أنفه الأقنى الأشمّ.

وكانت رائحة الزَفَر، مشبعة وعذبة، تهبّ علينا مع دخان الكانون الكبير في حوش بيتنا، ستي أماليا تطبخ للعشا دكرين بط.

ليلة الأحد، بقي.

خالي يونـانٍ جاء، ومحتـاج يرمّ عَـظْمه، رائحـة دخان وقِيـد أعواد الذرة الجافّة وحطب القطن وورق الجرايد وخشب النبقة المكسّر الذي كنت قد خلعتُه ـ منذ أيام ـ بضربـات الفأس من عـلى أطراف فـروع الشجـرة العريقـة بينما ستي أمـاليا تهتف بي من تحت: يـاواد بزيـادة، حاسب ماتطلعش فوق. ولكني كنت منتشيـاً بسُكْر المغـامرة وجسمي يتـأرجح عـلى الأغصان العـالية، مهـتزة رقيقة تنـذر بـالانفصـال كـل لحظة، ضربات فأسي تنزع أطرافها الـرقيقة الصـالحة للوقـود، رائحة نسـغ الخشب الحيّ ولحمه الغضـير، مع الهـواء الممتـلئ بـالخضرة من ورق الشجر متكاثفاً ومترقرقاً حواليّ، فيها حلاوة هيّنة، تزيد من خمـر استهاماتي.

كم سكـرت، أنا، قبـل المـذاق. بـل صرعتني خمـرك. فكيف بي غريقاً في سورة جسدك؟

سُكْري مركَبٌ طاحت به اللُجج.
لا مرسى لي.
حتى الآن.
حتى الآن.

كتب عمي فانوس لأبي رسالة عزاء رسمية قليلاً وحسب الأصول، بعد أن مات غَنَنّ - أخي إميل الصغير الذي لم أعرف لي أخاً غيره - بالتيفوئيد، بعد عذاب طويل. كانت أختي عايدة قد ماتت قبله بشهرين، بالمرض نفسه ونجوت أنا، وأختي هناء.

وجدت الرسالة على ورق أصفرّ من الزمن، به مربعات زرقاء باهتة، عزيزي أبو أمين، أقدم لحضرتكم وللست والأنجال سلامي وأطيب تحياتي. وبعد حضرت لطرفنا الست أم يونان أمس بسلامة الله ولكن صحتها منحرفة وعلمنا منها بوفاة نجلكم إميل فتكدرنا جداً يعلم الله ولكني واثق من أنك رجل عاقل وتعرف الله ومن يعرف المسيح يرتاح. نسأل للفقيد الرحمة ولكم الصبر والسلوان. وديدة زوجتنا تشاطركم الأحزان وتهديكم سلامها وتأسف لعدم حضورها نظراً لأن الست والدتنا موجودة بدمنهور من مدة شهر تقريباً. سارة عيونها مريضة وربما تحضر لطرفكم قريباً. من هنا الجميع بخير ويهدونكم أزكى السلام. أخوك فانوس أرسانيوس الطرّانة في ١٧/٨/١٩٤٣.

أربعة شهور فقط قبل أن يموت أبي.

قلت: الله يرحمك يا خالي ناثان. عندما كتبت رسالتك للعزاء لم

تلجـأ، أنت، إلى إكليشيهـات الصـبر والسلوان والسلام والتـماس الأعذار. بل أوجعك الفقد، وأوقعـك مريضـاً مخشوش الـوسط. كم كنت ـ أنت ـ حارّ القلب.

قلت: أجئت تحاسب الناس بعد أن ماتوا، وشبعوا موتاً؟

قلت: نعم.

كنت قد شُغِلت عن ذلك كله.

في ١٤ مايو ١٩٤٨ كنت موقناً أنني سوف يُقبض عليّ، ليلتها.

وقرأت في الأهرام أنـه وجدت طفلة ضـالة في الشهـر السابـع من عمرها ملقاة في دار محكمة الوايلي الشرعية. وعثر البـوليس بطفـل في الثانية من عمره كان ضالاً بدائرة قسم الوايـلي، وبطفـل اسمه محمـد حسنـين في الخامسـة من عمره بـدائرة مصر القـديمـة، وبـطفـل يبلغ الرابعة واسمه سيد محمدي بدائرة قسم شبرا.

أطفال ضالة.

وأن النيابة استأنفت الحكم الصادر من محكمة جنح الوايلي بـبراءة عبد الرحيم راغب المتهم باحراز قنبلة، وتحدد غداً لنظر الاستئناف.

عرفت من رحمة أن دلّالة طوّافة بالبلاد، أصلها دميـاطية، سمعتْ خبر خطوبـة عمي فانـوس وخالتي وديـدة، فجاءت، مخصـوص، من شبـين الكوم، ومعهـا جميع أصنـاف التطاريـح الدميـاطي المضمـونـة الصبغـة، والبراقـع، والـبرنجـات، والملسـات الإدكـاوي، والـطرح الكريب والكريشـة الحريـر، بالمـتر وبالـوقّة، حسب طلب الـزبونـة،

وعندها أيضاً أصناف الحراير والملايات، المزوي والقطن، والجبردين برامة الدمياطي. وأن خالتي وديدة فاصلتها حتى أهلكتها - وهي الدلّالة بنت السوق.

واشترت منها، بالرُخص، ما يلزم للجهاز.

كان جلالة الملك جالساً، بكل تلك الفخامة الصبيانية التي تبرق وتضيء، وجهه الشاب لامع ونضير، في العربة الملكية التي أقلته إلى دار البرلمان يوم الافتتاح، مقفلة، بتطاريز ذهبية، وقد وقف خلف العربة اثنان من «الجروم» بالزيّ الخاص، واقفين على حيلهم على العارضة المعدة خلف جسم العربة المدوّر الموصد، علامة التاج المذهبة ملصقة بطرابيشهم الحمراء.

كان الطريق خالياً، موحشاً، تماماً.

حموة الظهر ساقطة عليَّ بلا رحمة.

وأنا أمر جنب الساقية القديمة، على وشك أن أدخل بيت الست جِنينة، أطلب منها السِبْحة الكهرمان من تحت مخدة المعلم جورجي.

نادتني شجرة السنط، شعرها المنسدل على صدرها العريان أشقر يضرب إلى البياض، وبه زهور صفراء، جسمها أملود يتمايل، لدناً وغضاً وداعياً بقوة لا تُردّ. هي سهلة أمامي، متاحة، مفتوحة الساقين.

- تعال، حبيبي، لا تذهب إليها، تعالَ إليَّ أنا، بين ذراعيَّ أسقيك الشهد المصفّى. تعالَ.. تعاااالَ...

أنين ندائها يسري بالخدر في دمائي.

أجد نفسي دون أن أعي سائراً إليها، على حافة التردّي في حضنها.

وقفت فجأة في آخر لحظة.

وجدت نفسي على حرف بئر الساقية، يكاد يهوي بي.

ببطءٍ استرددت دمي من الأسْر، ومن وقدة نار الظهر.

وبعنفٍ اندفعت نحو باب ست حنينة.

كان الباب مردوداً، خبطت عليه برفق فانفتح من تلقائه.

العتمة الخفيفة الرحيمة اشتملتني، في ظل أشجار الحوش، الجميز والجوافة والنخل والنبق والمانجة.

عبرت آخر الحوش المظلل بتكعيبة عنب وارفة، مريحة، وعطرة برائحة سكَرية، متخمرة قليلاً جداً، هبْوة من بَضّ العصارة المحبوسة التي تهمّ أن تتفجّر من تحت جلدها الغضّ. دارت برأسي تلك الرائحة.

ووجدت نفسي على عتبة الغرفة الكبيرة الوحيدة وقد وقعت في قبضةٍ أشدّ أسراً وأكثف شمائل. في عتمةٍ من نوع خاص، مرئيّ، كأنها نور خافت جداً ومُخايِل وشائع، رأيتها، مع عمي باسيلي. رأيته يزحف بمشقة، يجر جسمه بقوةِ دَفعِ خاصرتيه وكوعيه، على أرض الغرفة المتربة.

رأيتها ترفعه عن الأرض، ساقاه وذراعاه متدلية، لا حياة فيها، يرفع إليها رأسه المغضّن المشقّق المتطلّب، كأن نور العذاب يتوقد من

عينيـه، في تلك العتمة النـيّرة. وصوت مكتـوم بين الأنـين والحشرجة ينِدّ عن فمٍ فاغر. أهذا هنين بكاءٍ جافّ؟

كل قسمة في الجسم المشلول فم فاغر مفتوح تتقلّب فيه الشفتـان، يتلوّى اللسان العيِيّ في كهف الفم. ولا صوت.

كل قسمة في الجسم المضروب عـينٌ تموت رغبـةً في النطق، في أن تقول شيئاً، أن تصرخ، تجأر. ولا صوت.

أيـدٍ متقبّضة عـلى لا شيء، متشنّجة الأصـابع، ممـدودة إلى أقصى الطاقة، العظْم متوتر، مشدود، يطعن الهواء ويغوص فيه بلا مقاومة، ولكن اليدين مرتخيتان، بلا قوة على إنفاذِ الإرادة، بلا صوت.

طلل الجسم الـذي كان عفيـاً فتياً مـازال يحتفظ بقناع القـوة، من الخارج فقط. استُنفِدت منه كل مقدرة. لم تبق فيه إلاّ حِجار منقضّة، دَفْعة إرادةٍ لا رادّ لها، ولا سبيل ـ أي سبيل ـ إلى تحقيقها.

إرادته أن ينطلق، ينطلق. لكنه أخرس. كل شيء فيه أخرس، ما أشد صرخته المدويّة، صامتة، يطبق عليها أنين وزحير مهـدود، يطبق عليها الصمت.

رفعته حنينة من الأرض، وضعته على السريـر، رأسه عـلى المخدة الطويلة.

من وراء داير الدانتيللا ـ متنـاثرة عليـه بقع دقيقـة سوداء ـ رأيتهـا تـطرح طرحتهـا على جنب، وتُنـزِل ثوبهـا الخارجيّ الأسـود، وثـوبهـا الـداخـليّ الملوّن، والقميص الســاتـان الأخضر الفــزدقي، من عـلى صدرها. تخلّص عنقها من التقويرة وتنزع ذراعيها من الأكمام بحـركة

سريعة أدهشتني دقتها وإحكامها. تتكوم الأثواب على وسطها وتستقر فوق الردفين الهائلين.

كان الثديان العظيمان كرتينْ تملآن العالم، لكن جمالهما وصباهما يخطفان النَفَس، مشدودين، الحلمة منتصبة وطويلة.

تُلقِمه ثديها.

لم أر إلا عينيْ ذئب هصور، مكسور.

لم أكن أحس بنفسي، كأنني مُسْتَرق.

أقول لنفسي الآن: لم أكن متلصصاً على مشهدٍ شبقيّ. بل مأخوذ، كالعادة، برؤيا كأنها نبوءة.

انضمت الشفتان الضاويتان، ببطء، وتلمَّس، على الحلمة أولاً ثم انطبق الفم على الثدي الأبيض المتوتر، الهائل، الذي استقر الآن على الشارب الكثّ، على الوجه المضروب، خشن الجلد، مغمض العينين؛ شعر الوجه غير الحليق شائك.

لم يكن ثديها يدرّ الشهوة بل لبنَ الحنان، عزاء من فقدانٍ لا يُعوَّض.

لا عن شفقةٍ أو رثاء، بل عن توكيد لأنوثتها، ورجولته المحجوزة.

عن انتصارٍ للمرأة الأم العشيقة.

فِعْلُ الحب فعْلُها، ليس منه.

منها، هي وحدها، لكل المعطوبين، لكل الساقطين.

المعلولين والمسحوقين.

المبتسَرين والشائهين.

أذلك إذلالٌ لكل الرجال، انتقامٌ من كل الرجال، من أبيها الذي لم يعـرفه أحـد، زوجها الميّت، ورجُلهـا الأعمى المدفـوع إلى حضنها بقوة سيف المَلاك البتّار.

رسوخ صخرة المرأة الناعمة تسدّ كل الثغرات، وكل الثغور.

مرساة ثابتة في لُجج الموج الفاسد المضطرب.

هأنذا أسمع السرّ يناديك.

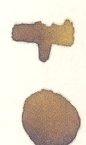
كم أنفقت من روحي عليكِ، فهل كسبتِ أنت شيئاً؟

أما أنا فقد كسبتُ بكِ ما لا غنى لي عنه.

أهوي، بمحبتي، في عتمة الشجن.

الثلاثاء ١٣ توت ١٧٠٨

٢٤ سبتمبر ١٩٩١



طرقتْ الخيالات بابي، لم أفتحْ لها، بل ماج بي الشوق، واضطرب.
أعرف أنّه سوف يُنضيني ويُضنيني خيالُك الذي يطرقني بالليل والنهار، يُشجيني ويُؤسيني، فماذا أفعل؟ أتحمَّله، على الكلال. بل أستدعيه. لا، لست أستعذب الوجيعة ولا أطيق اقتراب الألم منيِّ، فكيف إذ يُطبِق، ولا يمضي؟
«طال بي الحبس» صريع الغواني أم صريع الأشواق المحلّقة.
ماذا أستطيع أن أعطيك؟
كيف أستطيع أن أمدَّ لكِ يد الحبّ، في وحشتكِ، وربّما دهشتكِ؟

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت